رواية

حب بلا قلب

أحمد فريد

اسم الكتاب: حب بلا قلب

المؤلف: أحمد فريد

سنة النشر: ٢٠١٦م

رقم الإيداع: 2016 - 27343

الترقيم الدولي: 978-977-236-919-5

الناشر: دار الجمهورية للصحافة

الإهداء..

تحت سـماء غربة الوجدان والمكان.. يصبح الحب بلا قلب والقلب بلا حب.. مجرد مسميات وراءها مسببات.

أحمد فريد



بدا الشتاء غير مسبوقاً عن السنوات الماضية، الصقيع ينحر فى جدران الأبنية القديمة، والسيول تنهمر طوال اليوم بلا توقف مما جعل أغلب ساكنى العباسية يحتمون بالأغطية الشتوية داخل منازلهم والبعض الآخر الذين دعت ظروفهم أن يضطروا للذهاب إلى عملهم والعودة منه يدفعون ثمن مجازفاتهم بالاستسلام لأمراض ذلك المناخ السيئ.. حتى القمر فى تلك الليلة توارى خلف السحب الكثيفة وترك ظلام الليل يسيطر على المكان وهو يتلقى بين الآونة والأخرى صعقات البرق والرعد ليشيع الفزع خاصة للأطفال وسط السكون المخيف.

وقفت الأم خديجة العشرى وراء النافذة تتلصص النظر إلى الطريق المظلم وتتصفح السماء الملبدة بالغيوم وكأنها تتوسل للطبيعة أن تتوقف عن غضبتها حتى تتمكن من الذهاب إلى عملها فى اليوم التالى حيث تعمل مديرة مدرسة ثانوية للبنات فى إحدى المدارس الخاصة وهى فى أشد الحاجة للاحتفاظ بتلك الوظيفة لكى يمكنها مواصلة رحلتها مع مسئوليات الحياة التى تحملتها وحدها ثلاثة وعشرون عاماً منذ انفصالها عن زوجها المهاجر إلى السويد ولم تنقطع أخباره عنها وعن ابنتيها وذلك من خلال ابنتها الكبرى التى يحرص هو على التواصل معها دون غيرها.

ولـم يكن حـال ابنتها الصغرى ذات الواحد والعشـرين ربيعاً أفضل منها فهى أيضاً انكمشـت فوق مقعدها وهى تتلفح بغطاء السـرير من شدة البرد والقلق يشـمل تفكيرها بشأن الصباح التالى وهى تبحث عن وسيلة للوصول إلـى عملها إلى منطقة مصـر الجديدة حيث تعمل سـكرتيرة لرئيس مجلس إدارة إحدى الشـركات الاسـتثمارية الكبرى ولا يمكنها التغيب ولو لساعات، خاصة وأن هيام شديدة الالتزام فى كل شىء بالإضافة لكونها تحضر لرسالة الماجستير فى الاقتصاد والعلوم السياسية.

اخترق الصمت صوت دقات ساعة الحائط التى تشير للواحدة مساء رفعت هيام رأسها بهدوء وهمست إلى والدتها متساءلة:

ـ ألم يراودك الإحساس بالنوم يا أمى؟!

التفتت إليها قائلة وهى تخطو نحوها:

ـ أجل يا هيام.. فأنا متعبة جداً وفى حاجة إلى النوم.. هيا يا ابنتى نذهب إلى غرفتنا.

الشـقة غرفتان وصالـة صغيرة.. الأم وهيـام فى غرفـة والغرفة الأخرى تخص الابنة الثانية جيهان وحدها.

وفى لحظـة اتجاههما إلى غرفتهمـا، انفتح باب الشـقة وظهرت جيهان وهـى تحتمى بمعطفها الفاخر المبتل قليلاً وقد أحاطت عنقها وكتفها بفرير أبيض يكاد ينطق بثمنه المرتفع.

و.. مرقت من جانبهما وهى تردد وكأنها تحادث نفسها:

ـ يا لها من ليلة.. لقد كنت أقود سـيارتى وكأنى أسـتقل لنشاً بحرياً فوق الأمواج.. تصبحون على خير.

واندلفت إلى غرفتها وأغلقتها كالعادة.

كانت الدقائق تمر برتابة مملة والسـكون يغوص فى أعماق الغموض مع صـوت وصدى رخات المطر فوق أرض الطريـق وزجاج النوافذ، مما زاد من حدة القلق الذى تعانى منه هيام فى لياليها بين الحين والآخر.

لقد عاشت هيام النصف الآخر من عمرها وهى تصارع يومياً قهر التساؤلات الغامضة التى فرضت نفسها على حياتها دون أن تصل إلى إجابات مقنعة لها.

فهى لم تلتق بأبيها نهائياً حيث تم طلاق والدتها منه قبيل إنجابها بأشهر قليلـة، وعندما بدأت تدرك مـا يدور حولها وهى فى عمر المراهقة لاحظت أن والدها لا يتعامل مطلقاً إلا مع شـقيقتها جيهان.. فكان يسـتدعيها إلى محل إقامته بالسـويد ويغدق عليها إلى حد الإسـراف اللامتناهـى، ويقوم برفقتها إلـى رحلات مختلفة إلى كل بلاد العالم، وعندمـا تعود إليهم نادراً ما تتحدث بوضوح عن حياة أبيها، بل وكثيراً ما ألمحت بأنها قادرة على الاستقلال عنهم والإقامـة فى فيلا خاصة بها فـى أرقى أحياء القاهـرة ولكنها تفضل الإقامة معهما وكأنها تشفق عليهما من عجز مواردهما وتتفضل عليهما بذلك الإشفاق خاصة أن أبيها لا يرسل إليهم إلا بقدر ما حكمت به المحكمة من نفقة إعاشة تتناسب مع إمكاناته قبل سفره وهجرته إلى السويد.

وكثيراً ما تساءلت هيام فى حيرة عن سبب ذلك التمييز فى المعاملة بينها وبين شـقيقتها بل حاولـت ذاك يوم أن تواجه والدتها بأسـئلتها الحائرة فلم

تجد لديهـا إجابات مقنعة غير إنهما انفصلا نتيجـة خلافاتهما المتكررة ولا تعرف هى الأخرى أسباباً لتلك التفرقة والتباين فى المعاملة.

وكلمـا كانـت تكبر هيام مع سـنوات عمرها كانت تكثر معها التسـاؤلات وتزداد غموضاً.

فوالدتها انفصلت عن والدها وهى فى ريعان شـبابها فلماذا لم تتزوج من بعده طالما كان الانفصال بينهما بسبب المشاكل وفقدان الحب؟

وإذا وجدت لأمها سـبباً لعدم الزواج بحجة الاهتمام بها وبشقيقتها فلماذا لم يتزوج أبوها طوال هذه السنوات من إمرأة أخرى بالرغم من ثرائه الفاحش وشبابه النضر؟

وتعود ليقهرها السؤال الحائر.. لماذا هى بالأخص التى أقصاها عن حياته ولم يسـتجب لكافة محاولاتها سواء عن طريق شـقيقتها أو عن رسائلها له.. فما الجرم الذى ارتكبته حتى يتحدد موقفه هذا منها؟!

بدت ملامح الفجر تلوح فى الأفق، بينما ما زالت هيام تتقلب فوق فراشها وهى تكاد أن تتوسل للقلق أن يرحل عن جفونها لعلها تختلس دقائق من النوم تعينها على مواصلة رحلة كفاحها اليومية.. ولكن الأرق عاندها.. وحيرتها مع الغموض راحت تكشـف صفحات واقعهـا الصفحة بعد الأخرى وكأنها تتابع بانوراما لذكرياتها الحديثة مع واقعها الملئ بالاستفسارات الحائره.

لمـاذا لم يتقدم أحمد فهمى للارتبـاط بها بالرغم من مرور أكثر من ثلاث سنوات على علاقتهما التى من المفترض أنها توحى بقصة حب كبيرة؟!

فهو شاب مثقف وخريج إحدى الجامعات الأجنبية داخل مصر ويعمل فى أحد البنوك ولا شــىء يمنعه من التقدم إليها حيث إنه وحيد والديه وإمكاناته الماديــة التى تتناســب مــع ظروفها هــى الأخــرى فكلاهما يمثــلان الطبقة الاجتماعيــة التــى تراقصت مــا بين حد الدخول المتوســطة ومــا بين أعتاب الثراء.. فما الذى يمنعه إذن من تتويج علاقتهما بالزواج؟! ما هو الســبب فى ذلــك الغموض غير المبرر؟!.. كثيراً ما خضعت لتفســير أكثر غموضاً عندما يراودها بأنها الســبب، وبأنها تضع حائلاً هلامياً بينها وبينه نتيجة لارتباطها المثيــر والمريب بعملها أو فى الحقيقــة ارتباطها برئيس مجلس الإدارة التى تعمل ســكرتيرة لديه دون أية مؤشــرات أو مؤثرات يمكنها أن تســتند عليها لتبرر ذلك الارتباط الوثيق.

فرئيس مجلس الإدارة شريف سالم رجل وقور له مهابة فريدة وتصرفاته كلها معها ومع غيرها من العاملين يتوجها الاحترام والتقدير بأسلوبه المهذب وإنســانيته التى يشــهد بها الجميع.. ولكن ما يقلقها هو ما يعترى وجدانها كلمــا التقت عيناها بنظرته، حيث ينتابها إحســاس بالذوبــان داخل أعماقها وتشــعر بالانجذاب نحــوه للدرجة التى تتمنى فيهــا ألا تفارقه لحظة، وكثيراً ما كانت تتقدم إليه ببعض الأوراق الخاصة بشــئون عملها معه وتجد نفسها مرغمة للاستسلام لتلك النظرة الصامته التى تجمع بينهما و كأنها فى حديث طويــل أحرف كلماته من نســيج الصمــت وغالباً ما تجد صعوبــة بالغة لكى تتخلص من ذلك الإحســاس وتلك النظرات التى يفرضها اللقاء عليهما حسب طبيعــة العمل بينهمــا، وهى لا تدرى ما هو الســر فى تلــك الانجذابة وأيضاً

الاستسلام لها!! وخاصة أنها بإحساسها الأنثوى تكاد تتيقن بأنه الآخر يقاوم تلك الانجذابة الغامضة فهى تستشعره فى التفاتاته وبعض كلماته المقتضبة ونظراته المتوترة.

ولأول مرة فى هذه الليلة يتسلل إلى خاطرها تصور ما كان بعيداً تماماً عن محور تفكيرها فى السابق، وهو الاعتقاد بأن أحمد فهمى قد لاحظ ذلك التناغم الصامت الذى يجمع بينها وبين رئيسها فى العمل أثناء زياراته المتكررة لها، ولذلك أرجأ الاندفاع وراء رغبتهما فى الزواج.

ذلك الخاطر المفاجئ جعلها غير قادرة على مقاومة استفساراتها الحائرة.. هل يمكن أن يتحكم الإحساس بالانجذاب إلى شخص ما فى قلوب المحبين وقرارتهما؟!.. هل يمكن أن يتبادل كلاهما الحب والإعجاب فى قلوب الآخرين دون أن يشعرا؟! هل يمكن ان يتفوق نبض الصمت على كلمات الأمل وأحلام المستقبل؟!

هل!!!

ولكنها انتبهت فجأة على صوت والدتها بجوارها وهى تلتفت نحوها قائلة:

ـ هل استيقظتى يا هيام؟.

أجابت بسرعة وكأنها تخفى أمراً مشيناً:

ـ نعم يا أمى استيقظت.. نعم يبدو أننى استيقظت.

٢

كانت عقارب الساعة قد تجاوزت منتصف النهار بقليل عندما استيقظت جيهان من نومها وهى تتثاءب بعمق وكأنها تفكر فى العودة إلى النوم مرة ثانية ولكنها لم تفلح فى تحقيق فكرتها فتحركت من فوق فراشها ببطء وتثاقل وعلى غير عادتها كل صباح اتجهت إلى الغرفة الثانية المجاورة لغرفتها وفتحت بابها برفق، ووقفت لحظات تتأمل الفراش وهو مرتب كباقى الغرفة وقالت بصوت مسموع كأن هناك من يسمعها:

.. واحدة تذهب إلى تلاميذها.. والأخرى إلى عملها.

.. كيف يحدث ذلك فى هذا المناخ العجيب!!

عادت إلى غرفتها بعد أن خاب أملها فى أن تجد إحداهما لتعد لها الإفطار فهى فرصة لا تتكرر إلا أيام العطلات فقط.

وقفت أمام مرآتها العريضة تستعرض قوامها بإعجاب يقترب من الغرور.

لم تكن جيهان ممن ينطبق عليهن صفة الجمال اللافت للنظر فوجهها حاد الملامح وبشرتها بلون جذع النخيل فلا هو بالأبيض ولا بالأسود ولكنه يميل للإصفرار الداكن، فهى قريبة الشبة من والدها على عكس شقيقتها « هيام » التى كادت تتطابق تماماً مع ملامح والدتها ذات الجمال المبهر.

واستطاعت جيهان أن تستغل تلك المقارنة بينها وبين (والدها) لتنفيذ

خطتهـا التى نجحت فيها باقتدار كبير لا يتناسـب مطلقاً مـع عمرها عندما بدأت فى نسج خيوطها.

فعندما وصلت إلى عمر السادسـة عشـرة وبدأت تطرح بإلحاح أسـئلتها على والدتها دون أن تحصل على إجابات مقنعة:

.. أين يعيش والدى:

.. لماذا انفصلتما؟

.. ولماذا يقاطعنا عمنا الوحيد؟!

.. ولمـاذا كتب علينـا أن نحيا تلك الحياة شـبه المعدمة فـى الوقت الذى تقولون فيه إن والدى واسع الثراء.

.. لماذا.. ولماذا.. ولماذا؟!!

ولكنهـا كانت فى كل محاولة تعود منها أكثر اضطراباً وغموضاً وتفشـل فى أن تستدرج والدتها لكى تخبرها بالحقيقة.

وقـررت فى ذلك الحين أن تخوض مغامرة بدون علم والدتها وشـقيقتها الصغـرى، وذهبـت إلى منزل عمهـا الذى يقطن فى محافظـة أخرى بمدينة طنطا.

وكأن الأقـدار كانت تدفع بخطاها نحو طريـق يأخذها إلى عالم آخر غير عالمهـا وإلـى حياة غير تلـك الحياة التى تعرفها وتعيشـها حيث كل شـىء مختلف، بل شعرت هى مما كان يفوق خيال أى مبدع.

كانت وكأنها ترى شمساً غير شمس الكون.. وليلاً لا يسكنه إلا الا الملائكة

بعيدا عن ضوضاء الشـارع ومواء القطط التى تسـكن سلم منزلها.. ونهاراً لا يسـتقبل إلا نسمات الربيع الحقيقى التى رأته وعاشته فيما بعد أثناء جولاتها العالمية إلى بلاد العالم مع والدها بعد لقائها بعمها بأشهر قليلة.

فلقـد أثارها الاسـتقبال المملوء بالشـجن عند زيارتها لعمهـا وقد هداها تفكيرها الغريب أن تبتدع قصة من خيالها بأنها تعيش مضطهدة من والدتها التى تميز شـقيقتها عنها فى كل شـىء.. وكيف يلقون بها على أريكة بردهة الشقة بينما يستمتعون هما بغرفة نوم مستقلة، وكيف لا تأكل مما يأكلان إلا قليلاً ولا ترافقهما فى أى شأن مهما كان تافهاً.

فعلت ذلك دون أن تدرى بأنها قد شـقت صدر الماضى بخنجر مسـموم ممتزج من أحشـاء السـنوات التى مضت وهى تتلفح بالغموض، لتجد نفسها أمام الحقيقة المريرة التى تعمدت والدتها أن تخفيها طوال السنوات الماضية.

سـمعت عن قصة الحب التى تشبة الأساطير بين والدتها وأبيها وكيف تم الزواج بينهما على غير إرادة عائلته التى كانت ترغب تزويجه من ابنة عمه.

وكيـف تحدى والدهـا الجميع من أجـل أن يفوز بوالدتهـا. ولكن.. كانت المفاجأة عندما علمت بالسـبب الحقيقى للانفصال بين والديها والتى أدركت تفاصيله من والدها فيما بعد.

حيـث تحولت الغيرة الشـديدة عند أبيها لزوجته إلى شـكل مرضى وبدا مستسلماً تماماً إلى هواجسه حتى وصل به الأمر إلى الشك فى سلوكها، وكأى عاشق غيور بدأ يفسر الأمور من حولها بالمعنى الذى يرضى خياله ومشاعره الملتهبـة. حتى جاء اليوم الذى اتخذ فيه قـرار الانفصال وتركها وجيهان لم

تكمل عامها الأول دون أن يدرى بأن فى أحشــائها طفلاً آخر قرر ألا يعترف به لكونه ثمار فســادها وخيانتها فجاءت (هيــام) إلى الحياة يتيمة الأب وهو على قيد الحياة.

ولم يكن من اليســير على والدها أن يعود إلى عائلته أو يستمر فى محيط الواقــع الــذى كان يعيش فيه مع والدتهــا.. وقرر الهجرة وســعى إليها حتى تمكن من تحقيقها فى السويد. وبعد عشر سنوات من رحلة كفاحه هناك بدأ الثراء يســعى إليه قبل أن يســعى إليه هو.. أصبح (صفــوت عامر) من أكبر الأثريــاء عندما ســاقته أقداره لكــى يصبح قريباً جداً من أحد تجار الأســلحة العالميــن فــى مصادفة تكاد لا تتكرر فى ســناريوهات الحيــاة وذلك عندما تصادف مروره بجوار ســيارة توقفت فجأة بعدما أصيب قائدها بإغماءة داء السكرى واقترب منه وهو لا يعلم أنه يقترب من أحد رجال المافيا المطلوبين مــن العصابــات قبل الحكومات ومنذ اللحظة التى عاونــه فيها حتى أفاق من غيبوبته واســترد الرجل عافيته وكأنه اســترد ملياراته بدأت العلاقة الوطيدة بينهما والتى وضعت والدها على نفس الطريق اللامفهوم قدرياً.. وهو طريق أثرياء الأثرياء.

ومن هنا طرأت على « جيهان » الفكرة شديدة الذكاء بأن تستثمر التشابه الكبيرالــذى بين ملامحها وملامح أبيها وبدأت تعمق فكرة أنها الابنة الوحيدة لأبيها وتزيد من اشــتعال ميزان الشــك فى صدره حتى يتيقــن تماماً بأنه قد اتخذ القرار السليم عندما رفض بنوة (هيام) له.

فعندما حضر والدها بعد ســتة عشر عاماً إلى مصر بناء على إلحاح أخيه

ليرى ابنته الحقيقية وكان الهم الأوحد لها هو قطع أوصال آخر نسيج أو أمل يربط بينه وبين شقيقتها حتى تنعم بمفردها بثراء أبيها لا بأبوته.

وهو ما تحقق بالفعل.

حيث أوهمت والدتها وشقيقتها أن والدها هو الذى سعى إليها من خلال أكثر من مرسال بما فيهم عمها.. وأنها مندهشة من الكراهية الشديدة التى يكنها لوالدتها و (هيام).. وأيضاً أوضحت فشل محاولاتها معه لكى تثنيه عن أفكاره دون جدوى.. ولم تغفل أن تبث تلميحاتها إلى والدتها بأنها قد أدركت السبب الحقيقى لقصة الانفصال.. كانت تشعر بسعادة بالغة وهى تمارس ذلك الدور المثيروكأن من الطبيعى أن تستحوذ جيهان على أبيها بالكامل بعيداً عن الوطن والأهل والأقرباء.. و.. والدتها وشقيقتها.

سافرت معه كثيراً إلى مختلف بلدان العالم.. وأغدق عليها أكثر من أمواله التى لا حصر لها، لدرجة أنه طالبها بأن تترك المكان الذى تقيم فيه وتختار أى قصر من قصور المناطق الجديدة ويشتريه لها لتعيش فيه بمفردها.. ولكنها فضلت أن تحصل عليه فى صورة مبالغ نقدية.. ثم عادت وبررت ذلك لأمها وأختها بأنها لا تستطيع الفراق عنهما، وذلك على غير الحقيقة فى أعماقها فلقد كانت تريد أن تكون ملتصقة بحياتهما لتعرف كل خطوة يخطواها خشية أن يفلت منها زمام خطتها ويفتضح أمرها فينهار المعبد الذى بنته بفكرتها الشيطانية.

عاشت معهما وهى فى علياء.. تشاركهما السكن بلا وجدان.. وتقطر عليهما الإنفاق بحذر دون إشفاق أو حنان.. لا تستمع إليهم كثيراً ولا تتحاور

معهما طويلاً.. أحاطت نفسها بشرنقة من الغموض، وأفصحت عن محاذير اشترطت بها ضمنياً عليهما بألا يقتربا منها.. لا أحد يسألها أين ذهبت ومتى عادت.. وما هو مضمون حواراتها مع أبيها أو معرفة أحواله.

ليس من حق أحد أن يجود عليها حتى بالنصيحة.. والمقابل هو استمرار بقائها بجوارهما ومد يد العون فى حدود ضيقة إذا ما احتاج الأمر لذلك من أجل توفير حياة كريمة لهما.

هكذا كانت جيهان ابنة (الواحد والعشرين عاماً) التى ابتليت دون أن تدرى بعاهة شرسة أصابت وجدانها فتحولت من ابنة رقيقة إلى كيان مفزوع من كل شىء.. من أحضان والدتها ومن حنان شقيقتها.. ومن أقرب علاقاتها.. و.. من المستقبل.

تمكن منها الإحساس بالحق فى كل ما لا تملكه ويملكه غيرها.. أرادت بلا مبرر أن تكسر الشموخ الذى تتميز به والدتها فأعلنت العصيان عليها مقابل بعض الأموال التى تمنحها لها لمعاونتها على مسئوليات الحياة.. وأرادت أن تذل جمال (هيام) وتسلبها حق المتعة به أو التعايش معه، فألقت بها فى دوامة الأسئلة وأمواج الغموض والحيرة من أجل الوصول لحقيقة موقف والدها منها.

نجحت جيهان فى كل رغباتها. ولكنها فشلت بعنف فى أن توقف هياج ذلك الوحش الغامض الذى سكن أعماقها وجعل منها مسلوبة الإرادة.. والوجدان!!



عندما تتلاحق الأحداث كالشلالات من كل اتجاه، وتحاصر الصدمات أى إنسان الصدمة تلو الأخرى بلا فوارق زمنية، وتتوحد المشاكل والأزمات والمكائد داخل بوتقة واحدة فى صورة تحالف شيطانى يتصدى عن عمد لكل نفس مسالمة.

وعندما تصبح الملامح زائفة كالسـراب، والكلمات تحمل معانى هلامية غير محـددة، والدمـوع باردة وكأنها جزيئـات صغيرة من حبات الثلـج.. وعندما لا تقوى الأمواج على الوصول إلى شـواطئها وتغوص من جديد فى أعماق البحار المظلمـة، وتتيبـس أوراق الورد ولا يشـفع لهـا جمالها لكى تفـوح بعطرها.. ويختفى الفجر من بين الليل والنهار، ويقف الطموح على أعقاب اليأس، وتصبح الحظى وكأنها على سير عجلة رياضية لا تتقدم خطوة ولا تتأخر خطوة.

وتتوه المشاعر فى الأعماق، ويضيق الوجدان بالكيان.

عندما يحدث ذلك!!

يموت الإحساس بالزمن.. ويتوارى الهدف عن مرمى البصر.

هكذا كان شأن هيام وهى فى طريقها إلى أحمد فهمى.

فهـى لا تدرى لماذا أصر على ذلـك اللقاء المفاجئ ولم تحاول البحث عن السبب، وكأنها فقدت الإحساس بكل شىء حولها وأصبحت لا تبالى دون إرادة بأى أحداث تطرأ عليها، فلقد أرهقتها الأسئلة التى طال انتظار إجاباتها دون

جـدوى.. واعتصرها الغموض الذى غشـــى حياتها، فلم تعـد كلمات الإعجاب تشجعها ولا الانبهار بجمالها يرضيها. باتت ككيان يعيش بنبض صناعى.

جمالها يصعب أن يحدده شاعر أو رسام.

فهى تمتلك ملامح رقيقة تشـــع هدوءاً، وجدائل سوداء تشبة الليل فى أوج صفائه. وقواماً رشيقاً يكاد لا يظهر له ظل تحت أشعة الشمس. وعينين تضم مقلتين بلون زرقة السماء.وبشرة بيضاء سكنت فوق وجنتيها حمرة الخجل.

وبمجــرد ظهورها داخل حديقة الكازينــو واقترابها من أحمد فهمى حتى بادرها قائلا والشوق يكاد ينطق من عينيه:

ـ لولا يقينى بأن ليســت هناك ملائكة تسير على الأرض لظننت أننى أرى ملاكاً الآن أمامى.

ابتسمت ابتسامتها الساحرة وهى تجلس أمامه مرددة:

ـ هكذا أنت دائماً تجيد المبالغة فى تعبيراتك.

أجاب بسعادة:

ـ لو كنتى تشعرين بما أشعر به نحوك لما اتهمتيننى بالمبالغة..

فأنا أقول وأعبر عما فى أعماقى تجاهك بصدق حقيقى.

أتسعت ابتسامتها وهى تقول:

ـ كالعادة أنت دائماً ما تتفوق على فى التعبير والإقناع

ضحك مقهقهاً..

وكانت فرصة لتتأمله وكأنها تراه لأول مرة.

كان أحمد فهمى نموذجاً للشاب الرياضى بالإضافة إلى وسامته الرجولية ونظراته الحادة وخفة ظلة الواضحة، كما أنه لا يفتقد لسرعة البديهة وأسلوبه المهذب.

و.. انتبهت إليه وهو يقول بجدية:

ـ طلبت أن أراك لأمر يهمنا.

تساءلت وهى تخفى فرحتها:

ـ أى أمر تقصد؟!

همس متردداً:

ـ أنا أمام موقف أحتاج فيه إلى مشورتك.. ولا أعرف ما هو القرار الذى اتخذه.

قالت بحيرة:

ـ مشورتى أنا!!

فاستطرد مسرعاً:

ـ نعم.. فأنتى وحدك ستحددين الموقف النهائى لقرارى.

أومأت برأسها باندهاش دون أن تنطق بحرف واحد.. فعاد قائلا:

ـ البنك رشحنى للعمل فى المركز الرئيسى بلندن.

ابتلعت ريقها وكأنها تبتلع الصدمة.. ثم تماسكت وقالت متساءلة:

ـ وما هى المشكلة فى ذلك.. فهذا أمر جيد بالنسبة لك؟!!

أجاب في وجوم:

ـ المشكلة عند أبى وأمى..و..

التفت بعيداً عن نظرتها وهمس كأنه يحدث نفسه:

ـ وأنت أيضاً.

رددت:

ـ أنا.

عاد مستطرداً:

ـ تعلمين أننى وحيدهم. ولن يتركونى أرحل بسهولة.. و..

قاطعته بلا تركيز.. وقالت:

ـ ولماذا لا تقنعهما بطريقتك؟!

تدلت ابتسامة خفيفة على طرف شفتيه.. وتساءل بدهاء ظريف:

ـ المهم أنت.. ما هو موقفك؟!

أجابت بحزم:

ـ وما دخلى فى الأمر!!

قال بصدق:

ـ هيام.. أعتقد أنه حان الوقت لاتخاذ قرار بشأننا.. فأنا أحبك ولن أستطع فراقك مهما كان المقابل.. و.. وقبل أن تعلق على كلماته أردف مسترسلاً:

ـ فـى الماضى كنت متردداً لأن أتقدم إليك للزواج منك بسـبب ثراء والدك العظيم، خوفاً من أن ترفضونى.. ولكن اليوم الفرصة مواتية لتحسين موقفى المالى.. ولا أعتقد أن..

قاطعته مرة ثانية بحماس:

ـ وما دخل ثراء والدى فى مشاعرنا أنا وأنت.. الأمر يخصنا وحدنا!!

قال بنبرة منكسرة:

ـ كيف.. وهل كان سيقبل والدك ارتباطك بشاب فى مثل ظروفى؟!

أجابت بلهفة:

ـ قلت لك لا شأن لوالدى بهذا الأمر.

تراجع برأسـه إلى الخلف قليلاً بعد أن فاجأتـه بكلماتها، وأدركت هى ما يجول فى فكرة.. فعادت تهمس وهى تكتم ثورتها:

ـ أقصد.. المفروض أنه سيكون مصيرنا واحد.

لاحظـت الوجوم والحيرة وقد سـيطرا على ملامحه، كما سـيطر الصمت بينهما للحظات ثقيلة انفرد خلالها كل منهما بنفسه إلى عالمه الخاص يفسر الأمر حسب تصوره.

وفى النهاية اقتحم الصمت قائلاً:

ـ إذن سـأخبر والدى ووالدتـى بالأمر.. وعليك أن تفاتحـى والدتك وأبيك وتمهدى لى الطريق لطلبك للزواج.

ودون أن تفكر للحظة أجابت:

ـ أنت تعلم أن والدى مسافر ويصعب تواجده فى أى وقت.

قال ببراءة:

ـ ننتظره.. المهم ألا يكون لديه مانع.

قالت وكأن الموقف لا يعنيها:

ـ وماذا عن سفرك؟!

انفرجت أساريره وقال مبتهجاً:

ـ أنا لا يعنينى ذلك السفر.. كل ما فى الأمر أننى كنت أبحث عن مدخل أبدأ به حديثى عن موضوعنا وأفاتحك بأمر رغبتى فى الارتباط بك.

تمتمت بسعادة بالغة:

ـ سأتعب كثيراً من طريقة مراوغاتك هذه.. على كل حال سأعتاد عليها طوال رحلة الحياة معك.

قال مسرعاً:

ـ متى ستخبرينى عن موقفهما.

اكتئبت فجأة وكأنها تذكرت حقيقة وضعها، وبأن الفرحة قد أنستها أموراً أخرى لا مفر من مواجهتها.

وأجابت بهدوء مصطنع:

ـ لا داعى للعجلة الآن.

تساءل بإلحاح وشغف:

ـ لماذا يا هيام.. هل تخفين عنى شيئاً؟!

قالت تنفى:

ـ أنا لم أخف عنك مشاعرى.

تلقت كلماته كالصاعقة عندما فاجأها قائلاً:

ـ هل شريف سالم طرف فى الموضوع.

صمتت برهة وكأنها تحاول استيعاب ما سمعته.. وأجابت بحزم:

ـ ماذا تقصد.. وما الذى دعاك لأن تقول ذلك.. فشريف بك مجرد رئيس مجلس إدارة الشركة التى أعمل بها.. ما الذى يجول بخاطرك.. هل..

لاحقها متشككاً:

ـ ما سر ثورتك تلك.. لقد كنت أتساءل فقط.

أجابت بضيق حقيقى:

ـ لأنك تتوهم أشياء لاأساس لها من الصحة.. و.. على كل حال لا تتعجل الأمور الآن.. فهناك أشياء كثيرة لابد أن أخطرك بها فيما بعد.. وعندها سأترك لك الخيار واتخاذ القرار الذى يناسبك.. و.. يناسبنى.

وقبل أن يتفوه بكلمة نهضت من مكانها واستدارت منصرفة وهى تحمل فى عينيها هموم الدنيا ورددت:

ـ سأتصل بك فيما بعد.

و.. انصرفت من أمامه.



بدت هيام وكأنها كيان بلا ظلال!!

فهى ليست سعيدة ولا تعيسة، ليست متفاءلة ولا متشائمة.

غير حالمة ولا متيقظة.. فى أعماقها مشاعر محيرة.. ليست محبة ولا كارهة.. لا راضية ولا غاضبة. تحيا ولا تعيش. لا هادئة ولا ثائرة. ليست مسالمة ولا متمردة. بدت كالبركان الخامد أعماقه متأججة وسطحه بارد.

قررت أن تضع حداً لتلك المتاهة وتخبر والدتها وشقيقتها بذلك الحدث الجديد، لعلها تستطلع الحقيقة من ردود أفعالهما.

تحدثت كثيراً وقالت ما قالت ثم صمتت فى انتظار رأيهما ولكنها لم تتلق جديداً.. لا شىء تبدل.. الغموض ظل مسيطراً عليهم جميعاً.

خديجة العشرى استقبلت الأمر بسعادة حقيقية كأى أم ترغب فى أن ترى ابنتها وهى تبدأ أولى خطواتها مع الحياة الأسرية الجديدة.. وجيهان استمعت إليها وكأنها تتابع مسلسلاً دراميا وتنتظر انتهاء مدة عرضه لكى تنشغل بأمر آخر يخصها وحدها.

تساءلت الأم بحماس:

ـ ومتى سيأتى ليطلب الزواج منك؟!

تدخلت جيهان وكأن الحديث موجه اليها وقالت:

ـ ليس قبل أربع سـنوات من سـفره.. لكى يكون قادراً على الإنفاق عليها وتكوين أسرة.

رمقتها ريهام بنظرة سريعة.. ثم التفتت لوالدتها قائلة:

ـ هو يصر على أن يعرف موقف والدى منه ومن مطلبه.

قالت جيهان مستنكرة وباندهاش:

ـ عن أى والد يقصد؟!

أجابت هيام ببراءة:

ـ عن والدنا طبعاً.

أسرعت جيهان تقول بكل جرأة وقسوة:

ـ مسـألة الوالد تلك يمكنك أن تستفسـرى عنها مـن والدتك.. أما عن أبى فأعتقد أنه لا دخل له فى الأمر.

شـعرت خديجة العشـرى وكأنها تلقت طعنة مفاجئة من سكين حاد كاد يمزق صدرها بوحشـية مؤلمـة.. وبصعوبة بالغة همسـت بأحرف مختنقة، وهى تنظر إلى جيهان بذهول:

ـ ما الذى تقصدينه يا جيهان؟.. وما الفرق بين والدك ووالدها؟!

فأنتما الاثنتان ابنتا صفوت عامر.. أليس كذلك؟!!

أجابت بتبجح مثير:

ـ هذه المعلومة.. أنتى وحدك التى يمكنك تحديد مصداقيتها.. و.. قاطعتها

هيام وهى تقاوم إحساسها بالدوار:

ـ ماذا تقصدين يا جيهان.. أسمعك تلمحين بأشياء خطيرة ومبهمة؟!

ابتسمت بدهاء لا يتناسب مع الموقف المتوتر.. ثم قالت:

ـ كلماتى ليست مبهمة.. و..

التفتت نحو والدتها واستطردت:

ـ أما بالنسبة للوضوح.. فأمنا الحبيبة هى الوحيدة القادرة على كشف كل الأمور الغامضة.

ارتفعت نبرتها وهى تقول بغضب شديد:

ـ أنتى تهذين.. ويبدو أننى لم أحسن تربيتك!!

أسقطت نظرتها إلى الأرض ولم تعلق.

بينما وجهت هيام كلماتها إليها وكل كيانها ينتفض هلعاً:

ـ وكأنك تريدين أن تخبرينى بشىء ما لا أعرفه يا جيهان؟!

أجابتها دون مبالاة:

ـ ليس عندى ما أقوله أكثر من ذلك.

عادت خديجة تقول وهى تكتم ثورتها:

ـ لم أكن أتصور أنك تحملين فى رأسك كل هذه الأفكار المسمومة.. ولا أعرف كيف سمحت لنفسك أن تتخيلين تلك الأوهام!!

ولأول مرة تبدو على ملامحها أسارير الغضب وهى تجيبها قائلة: ـ أنا

لم ابتدع تلك الأفكار.. ولم أستدع هذه الأوهام.. أنا أتحدث عن واقع نلمسه جميعاً.. ولكنكما للأسف تتعمدان ألا تعترفان به..و..

قاطعتها بحدة.. وبدت وكأنها تقاوم رغبتها فى أن تصفعها على وجهها.. لعلها تفيق.. وأسترسلت فى غضبها قائلة:

ـ أنتى بلا شك مريضة نفسياً.. أراك حاقدة والأنانية تسيطر على كل مشاعرك تجاه شقيقتك.

فوجئا بها وهى تطلق ضحكتها بهيستيريا.. ثم قالت باستهتار:

ـ أخبريها إذن عن سبب انفصالكما.. أنتى وأبى!!

خيم الصمت على المكان.. راحت تتصفح وجهى ابنتيها، وقد أغرورقت عينيها بمدامع حبيسة.. بدت وكأنها تستعيد فى ذهنها ذلك الماضى البعيد، بينما وقفت هيام تراقب صمتها مشدوهة وهى تقاوم رجفة عنيفة سرت فوق شفتيها.

وبهدوء همست الأم بعد أن تحررت الدموع من جفنيها وسالت على وجنتيها دون قدرة على ملاحقتها.. وقالت بنبرة متهالكة:

ـ يبدو أن عمرى ضاع هباء.. يا ليتنى مت قبل أن أرى ابنتى الكبرى فى هذا الموقف.

لم تحرك جيهان ساكنا.. ولكن هيام تقدمت بخطوات مقتربة منها وحاولت أن تضمها إلى صدرها وهى تردد:

ـ ما الذى تقولينه يا أمى.. فأنت بالنسبة لى أعظم أم فى الدنيا.. ويكفى

تضحياتك من أجلنا.. فأنت الأب والأم والأمان والحنان وكل شيء في حياتنا.

قالت جيهان بفتور وهي تتأهب للانصراف من أمامهما إلى غرفتها:

ـ هكذا أفضل.. ويجب ألا نخوض في ذلك الحوار مرة أخرى.

أوقفتها خديجة بصرخة مكتومة:

ـ انتظـري هنا.. لابد أن تخبريني من أين جئتـي بتلك الهواجس.. وبماذا أخبرك أبوكِ عن انفصالنا.

تراجعت وهي تنظر إلى هيام.. ثم أجابت:

ـ قلت لا داعي أن نخوض في مثل هذا الحديث.

رددت بإصرار:

ـ لن أسمح لك بالانصراف قبل أن تجيبي على سؤالي!!

أجابت بتحد واضح:

ـ أنا ليس من حقي أن أجيب على سؤال لا يعرف إجابته سواك.

بلا وعي رفعت خديجة كفها وصفعتها على وجهها بقوة وهي تردد ثائرة:

ـ أنت في حاجة لتقويمك من جديد.. أنت مريضة بالفعل.. و..

أسرعت هيام تفصل بينهما بجسدها النحيل وقالت صارخة:

ـ كفى.. كفى أرجوكما.. أنا لا أريد أن أعرف شيئاً.

تحسسـت جيهان آثـار الصفعة فوق وجنتيها، وقبـل أن تغادر في اتجاه غرفتها التفتت نحو هيام قائلة بهدوء:

ـ علــى كل حال.. لا تقلقى.. فالمال وفير وســوف أعطيك ما تريدينه لكى تُتممى زواجك من هذا الشاب.

و.. اختفت داخل غرفتها.

اندست هيام فى حضن والدتها وهى مستسلمة لنحيبها المرير وهى تردد قائلة بحب:

ـ أرجوك يا أمى لا تغضبى منها.. نحن نحتاج إليك.. أنا ليس لى فى الدنيا سواك.. ومهما كان الأمر أنتى بالنسبة لى كل حياتى.

وبيد مرتجفة ربتت خديجة على رأس هيام.. وقالت بسكينة:

ـ أختــك فقدت عقلها.. الأموال التــى أغدقت عليها جعلتها تفتقد توازنها.. هى أصبحت..

قاطعتها هيام بإصرار:

ـ لا تنشــغلى بحديثها يا أمى.. يجب أن تعــود الحياة بيننا كما كانت فأنا لــم أر فى الدنيا غيرك وغيرها.. ولا أريد أن أفقدك أنت الأخرى بعدما افتقدت أبى دون إرادتى.

و.. انهارت فى بكاء شعرت به يمزق شرايين صدرها.. و.. اندفعت مهرولة هى الأخرى إلى غرفتها وكأنها تحاول الهروب من حقيقة ما لا تريد تصديقها.

بينمــا تهاوت الأم فوق مقعــد قريب منها وكأنها تغــوص فى ماض بعيد مؤلم يطالبها باجترار ذكرياته بعيداً عن واقع أكثر إيلاماً.

٥

لم يظهر الغروب فى الأفق بعد.. ولكنه أتى مبكراً ومتسللاً إلى عقل وذهن أحمـد فهمى بعدما تلقى مكالمة هاتفية من جيهان تطلب مقابلته لأمر هام.. كانت المفاجأة أكبر من كل توقعاته.

فهـو لم يلتق بها من قبـل ولا يعرف ملامحها.. ولهذا تدفقت التسـاؤلات الحائرة إلى ذهنه، وشـتت أفكاره، وتشـابكت كل الاحتمـالات التى حاول أن يفرضهـا على تصوراتـه ولكن انتهى به الأمر إلى الفشـل للوصـول إلى أية مبررات لذلك الطلب المفاجئ لمقابلته.

ردد هامساً فى أعماقه:

.. كيف عرفت رقم هاتفى؟

.. ماذا تريد من هذا اللقاء؟

.. هل تحمل لى رسالة برفضى.. هل اعتبرونى متجاوزاً؟!

انتهى من عمله فى الخامسة بعد الظهيرة.. توجه مسرعاً إلى المكان الذى حددته جيهان.. فندق مطل على النيل.

جلس يتابع البواخر السياحية بأشـكالها الجميلة وأحجامها المختلفة ثم ينتقل بنظرته إلى الطريق يدقق فى السـيارات الأجرة التى تتوقف أمام بوابة الفنـدق، لعله يتعرف على جيهان من على ذلك البعد.. شـعر بالزمن ثقيلاً..

وبدا التوتر يحاصر إحساسه بالملل وهو يقاوم الاضطراب القابع فى أعماقه.

وبدون إرادة نسى الموعد الذى جاء من أجله، وتخلص من متابعاته المتوترة، بعدما لفت نظرة فتاة أنيقة ترتدى نظارة سوداء تثير الغموض وهى تهبط من سيارة جديدة وتتركها بعيلاء إلى أحد الشباب ليضعها فى المكان المخصص للسيارات، واتجهت بتؤدة إلى داخل البوابة، وهو يتابعها إلى أن اختفت.. وما كاد يعود مرة ثانية لمتابعة حركة البواخر السياحية حتى فؤجئ بالفتاة تقف أمامه وتبادره بجرأة متساءلة:

ـ حضرتك الأستاذ أحمد فهمى؟!

وقف مسرعاً وهو يجيب بتأدب:

ـ نعم أنا أحمد..

وقبل أن يكمل.. لاحقته وهى تجلس على المقعد المقابل:

ـ أنا جيهان عامر.

جلس مستسلماً وهو يبتلع دهشته من قدرتها على معرفته بالرغم من أنها لم تره من قبل.. لاحظ اختلاف الشبه بينها وبين شقيقتها مع تميزها الواضح فى ملابسها وجرءتها أيضاً.

قالت بثبات:

ـ عرفتك من كثرة المعلومات التى رددتها عنك هيام فى أحاديثها.

حاول أن يبتسم من خلال ارتباكه.. فاسترسلت قائلة بدلال مصطنع:

ـ فى الحقيقة.. هى لم تكن دقيقة أو موفقة فى وصفك!!

ردد باندهاش:

ـ وصفى!!

أجابت وهى ترفع النظارة من فوق عينيها:

ـ نعم.. فأنا أراك أكثر وسامة مما قالته عنك.

إزداد ارتباكاً من شدة جرأتها.. ثم حاول أن يبادلها المجاملة قائلاً:

ـ أنا أيضاً لم أوفق فى تصورى عنك من خلال حديث هيام عنك.

قالت بنعومة متساءلة:

ـ يا ترى الواقع فى صالحى أم لا؟!

أسرع يقول كالتلميذ المجتهد:

ـ بالطبع الواقع فى صالحك.. أنا كنت..

لاحقته بميوعة متعمدة:

ـ أشكرك على تلك المجاملة.. فى الحقيقة أنا يبهرنى ذكاء أى شاب.

وعلى غير المتوقع فاجأها قائلاً:

ـ أفهم من ذلك إننى نجحت فى كشف الهيئة.. وطلبى لم يرفض من طرفكم؟!

قالت بلا مبالاة:

ـ أى طلب؟!!

اكتئبت أساريره قبل أن يقول:

ـ ألم تخبركم هيام عن رغبتى!!

أجابت بدهاء:

ـ أخبرتنى عن رغبتك فى السفر إلى الخارج!

قال مندهشاً:

ـ فقط!!

دققت النظر إلى عينيه وهى تقول:

ـوهل هناك شيئاً آخر؟!!

همس بارتباك:

ـ أقصد عرض الزواج.

ابتسمت بفتور.. ثم قالت وكأن الأمر لا يعنيها:

ـ الزواج أمر يخصها وحدها.. ولكن..

صمتت لبرهة.. شعر بها وكأنها دهراً.. ثم أردفت متساءلة:

ـ هل صارحتك بموافقتها

أجاب بلا تردد:

ـ نعم.

عادت تتساءل بخبث شديد:

ـ فـى الحقيقة هيام من النوع المحير.. لا أحد يسـتطع أن يدرك ما يدور فى رأسها.

رمقها بنظرة متشككة قبل أن يقول:

ـ لقد وعدتنى بأن تخبركم جميعاً بمطلبى.. و..

قاطعته بثقة:

ـ هى أدرى بظروفها..

ـ لا أفهم!!

أجابت وكأنها تتأهب لتعتصر قلبه:

ـ أنا شخصياً لا أفهمها.. فهى كل يوم بحال مختلف.. ولقد اعتادنا على ألا نتدخل فى شـئونها الخاصة.. هى تريد ذلك.. وأنا أحترم إرادتها طالما لديها البديل الذى تثق فيه وتضع بين يديه كل خبايا شئونها.

بدا كالمعتوه وهو يتساءل متلعثماً:

ـ أى بديل هه.. أى بديل؟!!

فاجأته بقولها:

ـ شريف سالم.. ألم تسمع عنه.. رئيس مجلس الإدارة بالشركة التى تعمل بها.

اندفعت الدماء بقوة إلى رأسه وهو يقول:

ـ ما دخله بحياتها الخاصة.. هى مجرد سكرتيرة فقط أو مديرة مكتبه.

عادت تبتسم بدهاء وهى ترمقه بشفقة:

ـ يبدو أن معلوماتك أنت أيضاً غير كافية!!

ـ أرجوك.. وضحى لى الأمر من فضلك.

أجابت ببراءة.. وهى تخفى سعادتها بأنها نجحت فى محاصرته بدائرة الشك والحيرة:

ـ لقد أخرجتنى بعيداً عن الموضوع الذى جئتك من أجله.

ظل صامتاً.. بدا وكأنه عاجز عن الكلام.. أو رافضاً الحديث فى أى شأن آخر غير ما يدور فى ذهنه من شكوك.

وكالأفعى زحفت إلى مسامعه قائلة برقة:

ـ كما تعلم أنا الوريثة الوحيدة لمليارات أبى.. و..

قاطعها بلا وعى:

ـ أنا لا أعلم.. ثم لماذا تكونين وحدك دون هيام؟!

أطلقت تنهيدة من صدرها.. ثم قالت بجدية:

ـ هذا أمر يطول شرح أسبابه.. المهم عندى أن أخبرك بالسبب الحقيقى الذى جئت به من أجلك.

و.. بدأت تتحدث طويلاً عن المستقبل.. وعن أن الفرصة لا تأتى لأى إنسان إلا مرة واحدة.. وعن شبابه وهو فى مقتبل العمر.. وعن عدد الليالى، وسطوة المال.. ودور الإنسان الذكى فى الحياة.. وكيف يجب إعمال العقل

فــى أمور كثيــرة لا دور للعاطفة فيها.. وبأنها بحثت كثيراً عن إنســان ذكى تثق فيه لكى يتولى إدارة أموالها الطائلة فى أى مشــاريع تســتثمر فيها تلك الأموال.. و..

فاجأته قائلة:

ـ عندما ســمعت عن طموحاتك.. أدركت أنك الشــاب الملائم الذى يمكننى أن أتشاور معه بشأن طموحاتى أنا أيضاً.

أجاب كالمسحور:

ـ أنا فى خدمتك.. فأى مشورة ترغبينها سأكون صادقاً معك.

همهمت بدلال وواضح:

ـ أنا لا أطلب مشورتك فقط.

تأملها دون أن يتفوه بحرف.. فأستطردت قائلة:

ـ أريدك شريكاً قبل أن تكون صديقاً مخلصاً.

تساءل وهو فى شبه غيبوبة:

ـ ماذا تقصدين بكلمة شريكاً؟!!

أدركــت بــأن لدغتها قد نجحت فى إفراز الســم داخل شــرايين عقله قبل وجدانه الطموح.. فعادت تقول بثقة مؤكدة:

ـ انصت إلى جيداً يا أحمد.. أقصد يا أستاذ أحمد.. أنا إنسانة واقعية جداً.. وقــد وهبتنى الأقدار الكثير من عطاياها.. ولقــد تحملت وصبرت طويلاً على

أمل أن أجد الشخص المناسب الذى أعتمد عليه.. و..

نظرت إليه بحنان ثم أردفت:

ـ وأعتقد أننى وجدته الآن.. فى لقائى معك اليوم.

ـ قلت لك إننى مستعد أن..

لاحقته قائلة بإصرار:

ـ لا أريدك أن تقول شيئاً.. ولكننى أريد الاتفاق أولاً.

تساءل ببلاهة:

ـ الاتفاق على اى شىء؟!!

قالت بعد أن تأكدت من سيطرتها على تفكيره.

ـ نتفق على ألا يعلم أحد مهما كان شأنه عن هذا الاتفاق.

ـ أنا لا..

تدخلت فى حديثه قبل أن يجيب.. وقالت وكأنها تحسم الأمر:

ـ خاصة هيام.

قال باضطراب:

ـ لماذا.. أقصد ما السبب.. ثم ما هو الاتفاق الذى تتحدثين بشأنه؟!

غابت للحظات.. ثم قالت من خلال تصنعها الوجوم:

ـ إذا قدر لنا أن نلتقى ثانية.. سوف تعرف كل شىء.

نهضــت فجأة وتمتمت وهى تتأهب للانصراف ومدت إليه بوريقة صغيرة سجلت عليها رقم هاتفها المحمول.. وقالت:

ـ هذا رقمى.. وسأنتظر مكالمتك إذا أنت قررت ذلك.

تناول الورقة وهو مشدوهاً دون تردد.

وما كادت تخطو خطوة واحدة.. التفتت نحوه وبادرته قائلة:

ـ بالمناسبة.. هل تأكدت من أن هيام تبادلك نفس المشاعر

أجاب كالغائب عن الوعى:

ـ لست أدرى.

اتسعت ابتسامتها فجأة ورددت مبتهجة:

ـ إذن سأراك قريباً.

وانصرفت من أمامه.

٦

سأذهب إلى عمى!!

قرار لم تكن هيام تتخيل يوماً أنها سوف تتخذه.

كانت مجبرة.. بل كانت مقهرة.

فاليأس والغموض والشك والحيرة، وكل تلك الأحاسيس وكأنها قد اتفقت عليها لتجبرها على اتخاذ ذلك القرار الصعب والمثير.

شـــهران كاملان قاست فيهما الكثير.. كان لاختفاء أحمد فهمى من حياتها غير المبرر ســـبباً مباشــراً لســقوطها فى دوامة الحيرة بـل والإحباط أيضاً.. حاولت مع لياليها الساهرة أن تبحث عن إجابة واضحة لسر إختفائه المفاجئ.

.. هل عرف شيئاً عن قصة أبيها؟!

.. هل شعر بفتورها وكأنها تجامله عندما أخبرته بأنها تبادله نفس مشاعره؟!

.. هل سافر بعد أن يأس منها؟!

.. لماذا لا يجيب على اتصالاتها الهاتفية المتكررة؟!!

هل ندم على مصارحتها بحبه؟!!

وفشــلت فى الوصول إلى أى نتيجة.. كما فشــلت فى أن تستدعى جرأتها لكى تجيب على سؤال شريف سالم المفاجئ عندما بادرها قائلاً:

ـ ماذا بك يا آنسة هيام؟!

أجابته وهى تقاوم أحاسيس كثيرة متشابكة فى أعماقها.

وهمست على استحياء:

ـ لا شئ يا شريف بك!

ولكنه عاود بإصرار مردفاً:

ـ ولكنى أراك على غير عادتك.. أشعر وكأنك فى مشكلة كبيرة تجدين صعوبة فى حلها.

كادت فى لحظتها أن تبوح له بكل شىء.. ولكنها تراجعت لأسباب لا تعرفها.. استسلمت لحالة الارتباك الوجدانى الذى داهم كل كيانها.. عجزت عن الكلام أمامه، وكأنها تطالبه هو بتفسير حالتها.. فهو أيضاً دون أن يدرى كان شريكاً فى ذلك النسيج الهلامى الذى أحاط بحياتها وساهم بلا ذنب فى رضوخها لتلك المشاعر المضطربة.

فهى لا تعرف ولا تقوى على أن تعرف بأى شعور تتعامل معه.

.. هل هو مجرد رئيسها فى العمل؟!

.. هل هو بديل لإحساسها بفقدان الإبوة؟!

.. هل يثيرها وقاره.. أم يخيفها؟!!

.. هل أنهكتها الحيرة إلى ذلك الحد الذى أصبحت فيه لا تستطع أن توضح الفارق بين الاحترام.. و.. الحب!!!

لا تعرف شيئاً.. وكأنها لا تريد أن تعرف شيئاً!

ولهذا اتخذت قرارها الأخير.

فاجأت به والدتها.. قالت بإصرار:

ـ سأذهب إلى عمى!!

لم تستطع خديجة أن تتحمل المفاجأة.. شعرت وكأن الأرض انسحبت من تحت قدميها وتركتها تسبح بلا جاذبية فى الفضاء.. وتلاحقت نبضات قلبها بشدة وبقسوة وكأنها ستخترق أضلعها، جلست قبل أن تهوى على الأرض.. ومن خلال غشاوة الوجوم فى عينيها نظرت إليها مشدوهة قبل أن تردد متساءلة:

ـ ماذا تقولين.. أى عم هذا الذى تريدين الذهاب إليه؟!!

أجابت وهى تكتم انفعالها:

ـ عمى.. شقيق أبى.

وبنبرة منكسرة رددت:

ـ أنا لا أسألك من يكون.. ولكنى أتساءل كيف تفكرين فى هذا؟!

همست بتحدٍ:

ـ كما فكرت جيهان تماماً.. أليس لى الحق فى هذا أيضاً؟!

قالت كالصرخة دون أن تدرى:

ـ أنتى لست كجيهان بالنسبة لهم.. و..

صمتت للحظة حاولت أن تزدرد ريقها الجاف.. ثم استطردت فى محاولة للتراجع عن جملتها:

ـ أقصد أنتى أعقل بكثير من جيهان المتهورة.

همست وهى على ثباتها:

ـ أريد أن أعرف مثلها على الأقل.

ـ يا ابنتى أنتى لا تعلمين الحقيقة.

قالت بإصرار:

ـ إذن أخبرينى بالحقيقة.. أخبرينى يا أمى إذا كان أمرى يهمك.

أجابت بانفعال وحسم:

ـ الحقيقة أنهم يكرهوننا.. وهذه المشاعر ليست جديدة عليهم.

ـ يحبون جيهان فقط!!

قالتها وهى تدقق النظر إلى عينيها.. حاولت خديجة أن تهرب من محاصرتها بتلك النظرة.. ولكن هيام كانت قد فقدت الكثير من توازنها وراحت تردد بصوت مرتفع:

ـ الحقيقة عندك أنتى فقط.. وكأنى لست ابنتك مثل جيهان.. لم أرك ثائرة عندما ذهبت هى إليهم.. وسمحتى لها كثيراً بالسفر إلى والدنا.. وارتضينا بالأموال التى تنفقها علينا.. وعاشت بيننا وهى تحتفظ بعالمها الخاص.. أما أنا فكان على أن أصمت وأن أتحمل غموضكما وأن أستسلم لواقعى الغريب..

وأن أقدم كل فروض الطاعة والولاء دون أن أفهم شيئاً.. ولكن.. انشغلت برهة حاولت فيها أن تمنع مدامعها.. ثم قالت ثانية:

ـ ولكن اليوم.. لن أتراجع عن قرارى.. سواء أرتضيتى أم لم ترض.

أدركت خديجة أن الأمر أصبح ليس فى نطاق سيطرتها، فعادت إلى هدوئها وقالت بنبرة ضعيفة:

ـ هذه العائلة كانت ترفض زواجى من أبيك منذ البداية.. و..

قاطعتها بحدة:

ـ لا تحديثنى عن الماضى.. لقد تزوجتما وأنجبتما ابنتين.. إحداهن على تواصل معهم والأخرى ممنوع عليها.. لماذا يا أمى.. لماذا يا أمى؟!

صرخت بحسرة:

ـ لأنهم اتهموننى ظلماً!!

ـ بماذا اتهموك؟!

فقدت القدرة على مقاومة الإحساس بالانكسار وعدم التماسك أمام ابنتها واستسلمت للبكاء المرير وهى منكسة الرأس، بينما ظلت هيام تتابعها فى صمت أقرب إلى الذهول.. وبيأس شديد قالت خديجة:

ـ أفعلى ما تشاءين يا ابنتى.. لقد أصابتنا لعنتهم وانتهى الأمر اذهبى.. اركعى تحت أقدامهم وتوسلى إليهم لكى يحبوك.. اذهبى يا هيام وأخبريهم أنك تعيشين مع أم فاشلة لم تستطع حمايتك وفقدت احترامها أمامك.. اذهبى يا هيام وأعتبريننى فى عداد الأموات.

أسرعت هيام نحوها واتكأت على ركبتيها وهى تحاول أن ترفع رأس أمها وقد سبقها نحيبها وهى تردد بصدق:

ـ لا ياأمى لا تقولى هذا.. فأنت أشرف وأطهر أم فى الوجود.. سامحينى يا أمى.. ولكنى تعبت وأرهقتنى الحيرة ودمرنى الغموض.

وبيد خديجة المرتجفة ربتت بحنان شديد على رأس هيام وهى تقول:

ـ أنا أعلم يا حبيبتى أن من حقك أن تفعلى ذلك.. ولكنى أخشى عليك من صدمة اللقاء بهم.

قالت وهى راضية:

ـ لا تخشى على يا أمى.. بعد هذه اللحظة الأمر أصبح لا يعنينى ولكن هى محاولة أخيرة لكى أتخلص من ذلك الكابوس.. وهذا الوهم الذى أعيش فيه وربما يكون القدر رحيماً بى.

و.. نهضت من ركعتها وهى تلملم مشاعرها المشتتة ثم التفتت إليها مستطردة:

ـ الشىء الذى زاد من حيرتى هو موقف جيهان.. فأنا لا أعلم سر إصرارها لعدم اتصالى بهم فى السابق.. و..

قاطعتها خديجة وهى تهمس بحسرة:

ـ جيهان.. هى وجيعتى وجرحى الغائر فى قلبى.. ولا أعرف ماذا يخبئه لها القدر.

أجابت بسرعة:

ـ ولهذا ياأمى اتركينى أذهب بنفســى إلى قدرى.. لعلى أســتطع أن أرفع عنــه ذلك الغيوم.. فانتظــاره يا أمى أكثر مرارة بكثير جــداً من مواجهته مع واقعى.. و..

انصرفت من أمامها بثبــات مدهش، وكأنها تتأهب بحق للذهاب لمواجهة قدرها الذى طال انتظارها له.



كان صباح غير كل صباح.. بدت الطبيعة وكأنها هى الأخرى تترقب حدثاً هاماً، الشمس تبحث عن منفذ من وراء السحب الملبدة لكى ترسل أشعتها إلى الأرض، وصوت الرعد يزمجر من على البعد فى الأفق كما لو كان يطلق صرخاته المدوية ليخيف بها ذلك الوجوم القابض على كل شىء، وأفرع الأشجار تتلوى تحت وطأة الرياح الشرسة وهى تحمل معها الإحساس بالصقيع على الأبدان والأركان.

لم تكن هيام أقل إحساساً بالانقباض من الطبيعة، فهى أيضاً كانت تشعر بالاختناق يجثم فوق صدرها بلا رحمة، ونبضات قلبها تتلاحق بسرعة من شدة الرهبة وهى فى طريقها إلى منزل عمها.

حاولت أن تستدعى فى ذهنها بعض التخيلات لصور استقبالها عندما تصل إليهم، ولكنها فشلت نتيجة للغموض الذى افترس كل مخيلتها.

كانت تسير بقدمين متعثرتين بعد ترجلها من السيارة الأجرة.. راحت تتلفت إلى اليمين واليسار وكأنها بحق تبحث عن ذلك القدر المجهول لعلها تتأهب لملاقاته قبل أن يفاجئها بصدمة شرسة تفوق كل قدرات تحملها.

وجهاً لوجه وجدت نفسها أمام شاب يافع الطول وقوى البنية عندما طرقت باب الشقة.. و..

بابتسامة هادئة بادرها قائلاً:

ـ أهلا بك.. هل تأمرين بشىء؟!

وبصعوبة بالغة.. أجابت بنبرة مترددة:

ـ أنا هيام عامر.

استفسر بنظراته قبل كلماته:

ـ من هيام عامر؟!

قالت بجرأة غير متوقعة:

ـ أريد مقابلة عمى!!

لم تنتظر كلمة منه.. وأردفت:

ـ أنا شقيقة جيهان.. وابنة صفوت عامر.. والدى.

أفسح الطريق أمامها.. وقال بصوت تفوح منه رائحة الدهشة:

ـ تفضلى.

جلست على أقرب مقعد وجدته فى طريقها.. تركها وحيدة..

شعرت بنفسها تغوص فى أعماق الأعماق لذلك المجهول الضبابى.. أزعجها السكون إلى الحد الذى كادت فيه أن تسمع دقات نبضات قلبها.

وبعد عدة دقائق، أحست بها دهراً.

ظهر إليها رجل اقترب من الثمانين عاماً، اتجه نحوها بخطى بطيئة وهو يلتفح بكوفية صوف حول عنقه، ويرتدى نظارة نظر سميكة وملامح وجهه

تكاد تختفى من التجاعيد الكثيرة وشاربه الكثيف.

وبادرها متساءلاً بصوت أجش:

ـ ماذا تريدين.. فحسام ابنى أخبرنى بأشياء غريبة!!!

جلس أمامها بتثاقل قبل أن تقول باضطراب:

ـ أنا هيام.. ابنة أخيك.

انكمشت التجاعيد فوق وجهه الذى بدا كقطعة اللوف الجافة.. ودقق النظر إلى ملامحها وهو يقول باندهاش صادق:

ـ ابنة أخى اسمها جيهان.. وهو لم ينجب غيرها.

زاغت ببصرها فى كل اتجاه، كما لو كانت تبحث عن أى إنسان ينقذها من ذلك الموقف القاسى.. و.. وبصعوبة مؤلمة تمتمت وكأنها تحادث نفسها:

ـ كيف هذا يا عمى.. أنا هيام عامر، وشقيقتى جيهان تزوركم كثيراً، وتسافر أيضاً إلى والدنا فى السويد.. ألم تخبركم بأن لها اختاً اسمها هيام.. ألم..

ولكنه قاطعها وهو مستاء:

ـ لقد انتهينا من ذلك الأمر منذ سنوات طويلة مضت.. وعليك أن تخبرى والدتك أن تكف عن ملاحقتنا.. وكفى ما حدث ورأينا منها وكفى ما سببته لنا من مآس ومشاكل منذ أن ظهرت فى حياتنا.

قالت بذهول:

ـ أمى تسببت فى مشاكل ومآس لكم؟.. أمى التى ظلت طوال السنوات الماضية

تكتم فى صدرها سراً وتحملت أعباءه وحدها.. أمى التى ظلمتها الدنيا.. و..

قاطعها مرة ثانية بحدة:

ـ يا فتاة.. إذا كانت والدتك ظالمة أم مظلومة.. فما شأننا بك وبها؟!!

ـ أنا لا أريد شيئاً منكم.. أنا فقط أريد عنوان أبى.

أجاب بغضب واضح:

ـ لو كان يعرفك.. أو كنتى ابنته كما تزعمين.. لكان أرسل لك كما يرسل لابنته جيهان.. وأنا رجل قد نال منى الزمن، وأصبحت غير قادر على مثل تلك المجادلات أو المناورات غير المجدية.. فارجعى إلى أمك واخبريها على لسانى أننا لن نقع ثانية فى براثن مكائدها ويجب أن تعلمى أنتى وهى، أن ابنتنا الوحيدة هى جيهان التى كادت أن تدفع ثمناً غالياً بسبب والدتك.. ولكن رحمة الله واسعة.. وهى الوحيدة التى تمثلنا فى عائلتنا المحترمة.

قالت دون أن تدرى:

ـ هذا ظلم.. وأنا أريد أن أعرف الحقيقة إذا كنتم تحكمون بالعدل.

قال بانفعال وتوتر:

ـ الظلم هو الذى فعلته أمك.. الظلم هو أن تخون زوجها الذى منحها شرفه و اسم العائلة وحبه الجارف، بينما قابلت هى كل ذلك بالخيانة والغدر والخسة.. و..

ولأول مرة تقاطعه وهى فى ثورتها:

ـ من فضلك أنا لا أسمح لأحد أن يتهم أمى بهذه الصفات مهما كان شأنه.

رمقها بنظرة تكاد تنطق بالتقــزز والقرف والضيق.. ثم قال وهو يحاول أن يكبت انفعاله:

ـ عودى إليها.. واسأليها كيف انفصلت عن زوجها بعدما أثبت خيانتها مع ابن خالتها.. اســأليها كيف تســببت فى وفاة والدتنا من شدة هلعها وخوفها على ابنها من أن يرتكب جريمة قد تدفع به إلى حبل المشنقة، وكيف تسببت فى اغتراب شقيقى الذى من أجله ماتت أمنا حزناً عليه.. اسأليها كيف أنجبتك بعــد انفصالها عن أخى، ودارت فى المحاكم لكى تثبت بنوتك له فى وقت أن أباك الحقيقى الخائن النذل قد تملص من فعلته بكل وضاعة وخسة.

نهضت فى فزع وقد امتلأت جفونها بغشاوة مدامعها.. وقالت بألم:

ـ لقد ســمعت كثيراً عن جبروتكم وقســوتكم، ولكنى لم أتصور يوماً أنكم إلى هذه الدرجة من الطغيان والظلم.

وقف وهو يتكئ على عصاه.. ثم قال مدعياً الهدوء:

ـ مسكينة جيهان.. لقد كتب عليها أن تتعايش فى هذا المناخ الموبوء الذى يجمع بينكم أنتى ووالدتك وخائن أبيك الذى لا يزال يتردد عليكم بكل وقاحة دون أن يعترف بالحقيقة هو وأمك.. مســكينة جيهان التى طالبناها أكثر من مرة أن تنفصل عنكم، ولكنها للأسف الشديد ولأصالتها النبيلة رفضت إشفاقاً عليكم من الضياع والتسول.

و.. انصرفت من أمامه دون أن تتفوه بكلمة واحدة.

وبمجرد خروجها إلى الطريق، لم تستطع الاحتفاظ أكثر من ذلك بتماسكها واستسلمت لدموعها التى انزرفت بغزارة حتى كادت أن تحجب الرؤية عن بصرها.. لم تعد تدرى كيف تسير وإلى أين تتجه وما الذى أتى بها إلى هذا المكان.. وضعت كفها على فمها لعلها تتمكن من إخفاء نحيبها الذى بدأ يرتفع صداه من أعماقها إلى فمها. كالحلم تخيلت أن هناك من يناديها من خلفها.. أكملت خطواتها المضطربة وهى لا تزال على حالتها.. ولكن الصوت تكرر مع اقترابه منها فالتفتت وهى تمسح مدامعها بأطراف أصابعها.. لتجد نفسها مرة أخرى وجهاً لوجه أمام ذلك الشاب.. بادرها لاهثاً:

ـ آنسة هيام.. حمداً لك أنى لحقت بك.

تملكتها الدهشة وهى تنظر إليه فى صمت.. بينما عاد هو قائلاً:

ـ أنا حسام.. أرجوك أعطنى الفرصة لمحادثتك قليلاً.

بدت وكأنها فقدت القدرة على الكلام أو التمييز بين الأشخاص.. كانت كالمسحورة والمسلوب إرادتها.. فاستطرد من جديد قائلاً:

ـ أنا عائد إلى القاهرة.. اسمحى لى أن أوصلك.. ولكن من فضلك انتظرى دقيقة واحدة حتى آتى بسيارتى.. لقد تركتها وأسرعت خلفك لاهثاً خوفاً من أن أفقد طريقك.. أرجوك انتظرينى فى مكانك لمدة لحظات.

و.. انطلق عائداً من حيث أتى.. بينما ظلت هيام ثابتة فى مكانها دون حراك وكأنها تلقت تعليمات مشددة وكان عليها الالتزام بها.. لقد شل تفكيرها، ولم تعد تدرى لماذا سمحت لنفسها أن تنصت إليه ولماذا التزمت

برغبته فى انتظاره.. وما الذى يدور من حولها ومن داخلها.. و.. دقائق قليلة وعاد حسام بسيارته وفتح الباب الذى فى اتجاهها.. وقال بتأدب:

ـ تفضلى يا آنسة هيام.

اندلفت بداخلها دون تردد.. ودون تعليق.. ودون إرادتها أيضاً!!

وفى الطريق.. بادرها على استحياء قائلاً:

ـ من فضلك لا تغضبى من أبى.. فهو معذور بحق.. فكل كلمة قالها هى بالنسبة إليه تمثل الحقيقة التى لا يعلم غيرها.. والأمر المؤسف حقاً هو تأكيدات جيهان على كل ما لديه من معلومات والتى واجهك بها.

وكأنها لدغت من عقرب سام، التفتت نحوه مرددة فى ذهول:

ـ جيهان.. ماذا قالت لكم جيهان؟!!

تلكأ فى الإجابة، وحاول الادعاء أنه لم يسمع سؤالها.. وظل صامتاً لعدة لحظات وهو ينتبه لقيادة سيارته.. فعادت تكرر عليه السؤال بإلحاح.

فقال مضطراً:

ـ جيهان فتاة غريبة.. تصرفاتها توحى بأنها تعانى من أزمة نفسية حادة أو أنها تحمل مشاعر متناقضة تجعل منها غير متوازنة فى أفعالها وأقوالها وبالأخص بالنسبة لك.. ولوالدتك.

ـ من حقى أن أعرف ماذا قالت عنا.

ـ نعم من حقك.. ولكن..

تعلل بأنه يشعل سيجارته لكى يراجع الكلمات فى ذهنه قبل أن يجيب قائلاً:

ـ هى فى كل زيارة لنا أو لوالدها كانت تتعمد أن تثير قضية معاناتها من أسلوب معاملتك لها وكذلك والدتك.. و.. ابن خالتها.

قالت بنبرة ضعيفة بعد أن خارت قواها تماماً:

ـ أنا لـم أر هذا الرجل الذى تتحدثون عنه مطلقـاً فى الماضى.. وجيهان أيضاً لم تره نهائياً. فكيف..

لاحقها قائلاً:

ـ لسـت أدرى لماذا كنت دائماً لا أصدق ما تقوله.. بل كنت متشـككاً فى نواياها تجاهكما.

قالت بانكسار:

ـ لماذا هى تفعل ذلك؟!!

أجاب بثقة:

ـ أزعم أنها ترغب فى الاستحواذ على أبيك وحدها.. وأعتقد أن الدافع لذلك هو الفارق الكبير فى التباين بين صورتكما..أقصد.. صمت لعدة لحظات ثم أردف:

ـ أقصد أن لا وجه فى الشبه نهائياً بينكما.

قالت ببراءة:

ـ أنا شديدة الشبه بأمى.. وأعتقد أنها تشبه أبى كثيراً.

تسلل إليه إحساساً بالارتياح، لأنها أصبحت تبادله الحوار.. وقال:

ـ هل تسمحين لى برقم هاتفك المحمول؟!

ومـرة ثانية بلا تـردد. تناولت وريقـة صغيرة من حقيبة يدها وسـجلت عليها أرقام هواتفها الخاصة بها وبعملها.. وفى نفس اللحظة أخرج من جيبه الكارت الخاص به.. وتبادلا الوريقات بينهما.. ثم قال بهدوء:

ـ لى رجاء عندك:

ـ ما هو؟!

ـ أرجـوك لا تخبـرى والدتـك بما حدث فى هـذا اللقاء بينـك وبين أبى.. وياليـت أيضاً ألا تخبرى جيهان بأى شـىء. وأنا أعدك فـى اللقاء الثانى بأن أخبرك بأمور كثيرة قد تكون غائبة عنك.

رددت هامسة برضى:

ـ تقول لقاء ثانٍ!!

أسرع مؤكداً:

ـ مؤكد سيحدث.. أقصد لو سمحتى أنتى بذلك.

انتبهت إلى أنها أصبحت على مقربة من منطقة عملها.. فأشارت قائلة:

ـ من فضلك أوقف السـيارة بعد عدة أمتار.. فأنـا أعمل داخل ذلك البناء الشاهق.. والوقت يسمح بعودتى للعمل.

وأمام البناء المرتفع أوقف محرك سيارته.. ثم نظر إليها مبتسماً وهو يقول:

ـ سأتصل بك قريباً.. وحمداً لله على سلامتك.

هبطت بهدوء من السيارة.. ثم انحنت قليلاً لتحدثه من خلال النافذة قائلة:

ـ أشكرك على اهتمامك بى.

اتسعت ابتسامته.. وقال فى مفاجأة مردداً:

ـ لا تشكرينى على شىء.. فأنا لم أفعل شيئاً يا ابنة عمى.

سرت رجفة شديدة فى كيانها عندما ترامى!! إلى مسامعها وهو يقول «ياابنة عمى».. ولأول مرة يرى ابتسامتها الرقيقة والتى شعر بها وكأن الشمس أخيراً استطاعت أن تنفذ بأشعتها من خلال ضباب السحب الكثيفة.. و..

انطلق بسيارته وكأنه خشى أن تغيب تلك الابتسامة عن عينيه مرة أخرى



لم تتوقع جيهان بأن سقوط أحمد فهمى سيكون بتلك السهولة غيرالمتوقعة

سقط أحمد فهمى دون أدنى مقاومة أمام الإغراءات المالية والجسدية التى مارسـتها عليه جيهان، بـات كالدمية المصنوعة من المطـاط حيث يتقاذفها ويلهو بها الأطفال كما يشـاؤون.. سـقط بعدما ألقى من خلف ظهره كل ما يربطه بواقعه، وأمسـك بأطراف أصابعهـا كى تحركه فى كل الاتجاهات كما تشـاء. أصبح وكأنه بلا ذكريات وبلا ماضٍ وبلا هوية أيضاً.. لم تعد تشـغله فكرة أنه وحيد والديه أو مصير مسـتقبله المهنى. تبلـورت دائرة اهتماماته فقـط داخل بوتقـة وبوصلة جيهان التـى تتحكم فى تحركاتـه.. منحته كل شـىء بحسـابات خاصة لها لكى تجعله لاهثاً فى كل وقت وراء استكمال أية بدايـات تبدؤها معه.. الآمال والطموحات غير مكتملة، والجنس غير مكتمكل، والمشاعربلا معالم، والرغبات مكبلة، والكلمات مبتورة من الأحرف، والسعادة تلوح له من على البعد، وذكرياته مع الجميع قبرت فى أعماقه المظلمة، كيانه بلا توازن، وخطواته تحكمها تعليماتها، أنارت له طريق الفواحش، فأسكرته بالخمر وأدارت رأسـه بالمخدرات وألهبت مشاعره الجارفة بالجنس الذى بلا بدايات أو نهايات، مجرد ملامح وبعض الترغيب والكثير من التمنع.

سـقط أحمد فهمى بعدما أسـقط من حسـاباته تماما مـا كان بينه وبين هيام، وتعلل بالمبررات التى أقنعته بها جيهان بأن معشوقته السابقة هى فى

الحقيقة ابنة غير شرعية، وكان ذلك المبرر كفيلا بأن يشطر أية رابطة تربطه بها. فكيف سيواجه والديه بهذا الأمر، وكيف سيواجه المجتمع.. و.. وذاته.

بهرته الهدايا وأعماه الجشـع وأذلـه الطموح، وأصبح لا يملك غير الطاعة العمياء دون قيد أو تفكير.

أخبرته بأنه مطالب بتقديم كشف هيئة لوالدها.. لم تمنحه فرصة التفكير فى اتخاذ أى قرار أو محاولة بلا استفســار، ذللت أمامه كل العقبات.. أعطته بعض المال وتذاكر السفر إلى السويد وأيدته بكل وضوح لأن يقدم استقالته من العمل.

أجلســته أمامها لتقــص عليه قصة قبل النوم وكأنــه طفل صغير فرضت عليه أحلامه وتخيلاته، الســعادة التى ســتجمعهما معاً، والحب الذى ســوف يظلل حياتهما، ومباهج الحياة وسطوة المال وقوة السلطان والجاه، والقدرة على تحقيق كل الرغبات.

فأغمض عينيه، وقدم إرادته قرباناً لرضاها، وسافر على أمل أن يعود إليها بالفوز العظيم وهو.. موافقة والدها.

تنفســت جيهان الصعداء بمجرد أن اســتقل أحمد فهمــى الطائرة وغادر أرض مصــر، وكأن وجوده كان يطبق على صدرها ويحول دونها وبين تنفيذ رغباتها مجهولة المصدر.. فهى تشــعر بأنها مجــرد أداة لقوة جبارة تتحكم فى مشاعرها وإرادتها و فى نفس الوقت لا تدرك ماهية تلك القوة ومن يقف وراءها، فاستســلمت لها بــلا مقاومة، بالرغم من أنها حاولــت كثيراً أن تقنع نفســها بأنها صاحبــة القرار فى كل شــىء.. المهم ألا تكون تلــك القوة هى الشــيطان بذاتــه أو بأقرانــه.. كان همها الأول هو البحث عــن المبررات التى

تعينها على تنفيذ مخططاتها، سواء إن كانت مبررات واهية أو حقيقية.

ولذلك روادتها خاطرة أفزعتها فجأة، عندما تخيلت ماذا يمكن أن يحدث بعد لقاء أحمد فهمى بأبيها.. فربما يعجب به وربما يستعين به وربما يحتل مكانتها فى قلب والدها.. أو.. ربما ينال قسطاً من أمواله على حساب رصيدها المتواصل معه.

«فصفوت عامر» بالنسبة لها لا يمثل الوالد أو الحماية أو الكيان الأسرى هو فقط صندوقاً سحرياً تتوالد فيه الأموال لتصب فى النهاية إلى صالحها. فهى لم تشعر يوماً بأية مشاعر نحوه كأب ولا كزوج أم ولا يمثل لها شيئاً غير أنه مجرد فرصة عابرة سوف تنتهى يوماً إلى زوال ولذلك يجب استثمارها بكل الوسائل وبأسرعها حتى ولو كانت على حساب بنوتها لأمها أو ارتباطها بأختها.. أو على حساب نفسها هى أيضاً.

وكانت الفاجعة الكبرى بالنسبة لها، عندما ذهبت إلى منزل عمها لتتلصص أخبار «عامر» وفهمى لعل يطمئن قلبها بأن لا شىء سوف يتغير بعد لقائهما. كانت المفاجأة هى معرفتها بظهور هيام لتلك العائلة أو لذلك المصدر المالى المجهول.

تملكتها تلك القوة الغامضة وهى فى طريق عودتها إلى القاهرة وقد تحولت إلى كائن آخر لا يرتبط بمعنى الآدمية بأى شىء.

لا هى حيوان مفترس ولا شيطان متمرس، ولا تملك نزعة إجرامية، ولا كارهة أو حاقدة.. هى فقط مرتعبة.. أحست بأنه عليها أن تدافع عن حقها الذى عاشت تخطط من أجله لسنوات وأشهر وليال طويلة حتى تمكنت من الوصول إليه وأصبحت ليست على استعداد أن تسمح لأحد مهما كان شأنه أن

يقترب من ذلك الحق الذى فرضته على واقعها.

و.. كالبـركان الـذى ظل يغلى حبيسـاً فـى باطن الأرض لآلاف السـنين وحانـت لحظة انفجاره.. والرعد الذى تضافرت كل قوى الطبيعة لكى ينطلق بصرخاتـه فى الأفـق البعيد والعميق، والثـور الهائج الذى انعدمت وسـائله للوصـول إلى جراحه، والزلزال المدمر الذى يفاجئ الكون كله بثورته فيحمل كل ما فى محيطه إلى دمار وبقايا إشلاء.

هكـذا بدت جيهان عندما وصلت إلى منزلهـا وصرخت كالذئبة الجائعة.. قائلة لهيام:

ـ من الذى سـمح لـك بالذهاب إلى أقربائى.. ماذا تريديـن منهم.. ما هذا التطفل والنفاق والانتهازية.

أسكتت الدهشة هيام، بل أخرستها تماماً.. أحست بأنها تقف عارية تماماً بلا ساتر يحميها من هذا الموقف.

تساءلت الأم بهدوء:

ـ ماذا بك يا جيهان؟

التفتت نحوها بنظرة شرسة وقالت بتهكم مطموس بالتهكم:

ـ ألا تعرفيـن بحـق.. مـا سـبب ثورتى.. ألسـت الطرف الثانـى فى هذه المؤامرة اللعينة؟!!

ـ أية مؤامرة.. يا عديمة الأخلاق؟!!

ـ ألم تعلمى أن ابنتك الغالية ذهبت إلى عائلتى لتتسول على حسابى أنا؟!

ـ ما قصة ترديدك لمعنى أقربائى وعائلتى.. هل لك عائلة منفصلة عنا؟!

أجابت بغل واضح:

ـ بالطبــع لى عائلتى الخاصة بى وحدى.. وأعتقد أنك لســت الوحيدة الآن التى تعرفين الحقيقة.

أدركت هيام بأنها المعنية بكلمات جيهان الأخيرة.. فقالت بلا إرادة:

ـ أنتى الســبب وراء كل ما حدث.. أنتى التى تعمدتى أن تشوهى صورتنا أنا وأمك من أجل أغراضك غير النبيلة.. أنتى التى حرمتيننى من رؤية أبى أو التواصل معه مثلك.. و..

وهنــا أطلقت جيهان موجة مــن القهقهات الهســتيرية.. ثم صمتت فجأة ودارت بنظرها إلى والدتها.. وتساءلت بخبث:

ـ اسأليها عن أى والد تتحدث.. أو أخبريها أنتى إذا كان فى مقدورك هذا؟!

تدخلت هيام وقاطعتها مرددة:

ـ أتحدث عن والدنا.. و..

قاطعتها هى الأخرى وقالت بثورة مكبوتة:

ـ والدى ليس والدك.. فأباك الحقيقى عنوانه لدى والدتك.

انتفضت خديجة كالفهد، وقالت كالصراخ:

ـ اصمتى يا ســافلة.. وكأنك لســت ابنتى.. أنتى صنيعة الشياطين.. أنتى معتوهة والغيرة من أختك سلبت عقلك.

وبهدوء غير متوقع من جيهان التى حاصرتهما بنظرة مشتركة وهمست وهى تستدير فى اتجاه غرفتها:

ـ يبدو أن لديك حقاً فى كل ما قلتيه عنى.. ولهذا سأترك لكما ذلك المكان الطاهر وسأنفصل بعيداً عنكما لعلك أنتى وهيام تجدان الفرصة للإنصات إلى ضمائركما!!

ومضت دقائق غير قليلة، ظهرت بعدها جيهان وهى تحمل حقائبها التى تمكنت من حمل بعضها.. واتجهت نحو الباب الخارجى مرددة قبل انصرافها:

ـ تمنياتى لكما بحياة كريمة مع الفقر.. والقهر.. وخطايا الماضى والمستقبل أيضاً.

وانصرفت مختفية عن بصرهما.

كصمت القبور، وخواء الفضاء.

خديجة غابت مع تساؤلاتها الصامتة والتى لا يوجد صدى لها إلا فى أعماقها.. لماذا أخفت هيام عنها الحقيقة ولم تصدقها القول عندما أنكرت لقاءها بعمها.. وهل أخبروها بكل شىء.. وبماذا أخبروها؟!.. هل اقتنعت هيام بما قالوا عنى؟!أم أرادت أن تلحق باختها وتنعم بالمال والثراء وتتركنى هى الأخرى وحدى!!

ولم تكن هيام هى الأخرى أهدأ بالاً منها.. فقد تملكها إحساس مقبض جثم على صدرها فأخرسها. واستسلمت لهواجسها المشتتة وراحت تحادث نفسها فى صمت.

هل هى الحقيقة بالفعل؟! هل أنا ابنة غير شرعية حقاً؟! هل لى أب آخر؟! من أين أتت جيهان بكل هذه الجرأة والإصرار.

هل من صفــوت عامر الذى من المفترض أنه أبى أيضاً؟! ولماذا لم تدافع أمى عن نفسها؟! لماذا اكتفت بالمناورة فقط

هل هى مخطئة فعلاً.. وما ذنبى أنا؟!!

التقــت نظرتهما معاً من خــلال ذلك الصمت الرهيــب.. وتحركت خديجة فى اتجاه غرفتها، بينما اتجهت هيام إلى الباب الخارجى منصرفة فى هدوء.

وكأن كلتاهما ذهبت إلى حال ســبيلها بحثاً عن إجابة لكل تلك التســاؤلات الغامضة.

٩

هدأت مشـاعر جيهان المتوترة، بعد أن وردت إليها أنباء سـعيدة من السويد وعلمت أن أباها قد ارتضى لها أحمد فهمى زوجا كما وفر له فرصة عمل فى إحدى المصانع لإنتاج الأثاثات وأنه سوف يعود قريبا لكى يؤسس معها عش الزوجية.

بينما كانت هيام لا تزال تعانى من فقدان الاتزان الوجدانى بسبب تشابك الأحـداث حولها فى ظـل توتر العلاقة بينهـا وبين والدتهـا دون حوارات أو تلميحات، وأيضا من أجل ذلـك الوارد الجديد الذى اقتحم حياتها بلا مقاومة منها والمتمثله فى شخصية حسام عامر الذى كان يصر على أن يناديها «بابنة عمى».. وكان ذلك كفيلاً بأن يشـعرها بالاطمئنان والرضى فى كل لقاءاتهما التى تكررت كثيراً بناء على رغبتهما المشتركة وفى إحداها اكتشفت هيام بأن قدرها لا يزال يحاصرها بدوامات الغموض والحيرة والكثير من اليأس عندما بادرها حسام متساءلاً:

ـ ألم تبحثى عن سر موقف والدك منك؟!

شـعرت وكأنه يوجه إليهـا اتهاماً مثلهـم بعدما ظنت خـلال مقابلاتهما السابقة أنه مختلف عنهم، وبأنه يتعاطف معها.. فأجابت باقتضاب:

ـ لم يعد الأمر يهمنى الآن!!

قال بإصرار:

ـ بل الأمر يستحق الاهتمام.. أليس كذلك؟!

عادت تقول وهى تكتم انفعالها:

ـ فى السابق كنت أتصور أن هناك من كان يدس الدسائس لكى يفرق بيننا.. أما إذا كان القرار صادر منه عن اقتناع.. ففى هذه الحالة من حقى أن أقول إن الأمر لم يعد يهمني.. وكفانى ما حدث طوال السنوات الماضية.

قال مسرعاً:

ـ أنا معك فى كل الأحوال.

إزداد إحساسها بالإهانة قبل أن تجيب متساءلة:

ـ أى أحوال تقصد؟!

هاجمه الارتباك وهو يقول:

ـ لم أقصد إيذاء مشاعرك.. و..

قاطعته وهى مضطربة:

ـ لقد تعودت على ذلك من الآخرين.. ولكن.. دعنى أسألك بوضوح لماذا سعيت خلفى.. هل لمجرد أن تبحث عن حقيقة ما لا تعنيك أساساً.. ام لأن لديك ما تخبرنى به.. أم ماذا؟!!

تعثرت الكلمات فوق شفتيه وهو يجيبها قائلاً:

ـ سعيت إليك بكامل إرادتى.. وبدافع من رغبتى الصادقة.

ـ وضد رغبة الآخرين أيضاً.. فماذا سيكون موقفك أمامهم؟!

لم ينطق بحرف فاردفت:

ـ من أنت؟!

فوجئ بسؤالها وأجاب دون تردد:

ـ أنا ابن عمك.

عادت تسأل وعلى شفتيها ابتسامة ذابلة:

ـ من تكون.. فأنا أيضاً لا أعرف عنك شيئاً!!

ـ أنا أعمل فى شركة للإلكترونيات.. وأرعى أبى المسن كما رأيتى.. وأغلب عائلتى تعيش فى نفس المنطقة.. وطموحاتى بأن يكون لى شركة مستقلة.. وأقسم لك أننى صادق معك تماماً.

تساءلت وهى تخفى الهدف من كلماتها:

ـ هل فى مقدورك أن تفتتح شركة خاصة كما تحلم بذلك؟!

قال باستحياء:

ـ وعدنى عمى بذلك!!

همست باستياء واضح:

ـ وإذا ما اكتشفوا علاقتك بى.. ماذا سيكون مصير ذلك الوعد؟!!

أجاب بحماس:

ـ لذلك أنا أبحث عن الحقيقة.

ـ من أجل المال!!

أجاب مصراً:

ـ بل من أجلك أنت.

رددت بهدوء:

ـ أنا...!!

ـ نعم أنت.. فأنا أشعر بأنك مظلومة.. وبأن هناك من لا يرغب فى إقرار الحقيقة.

اعتدلت فى جلستها قبل أن تقول بجدية:

ـ وهل تتوقع من المظلوم أن يكون سبباً فى ظلم الآخرين؟!

ـ لا أفهمك.

ـ إذا كنت مقتنعاً بأننى مظلومة.. فهل تظن بأننى سأقبل أن أقف أمام مستقبلك أو أدمر أحلامك إرضاء لأى شىء.. حتى ولو كانت لمشاعرى ذاتها!!

قال وهو شارد:

ـ أنا لم أفكر بهذه الطريقة.. أنا توددت إليك صادقاً.. وأرغب فى أن نتعاون لكى نصل إلى الحقيقة ونرفع الظلم عنك.

أجابت بسخرية مريرة:

ـ سطوة المال تطمس أى حقيقة مهما كانت واضحة.. وأنا سأعفيك بل سأحاول إنقاذك من تلك السطوة التى حتماً ستجرفك إلى دوامات لا طائل لك بها.. وستقهر أمام خيارات الواقع وسيكون المقابل قاسياً قد يجعلك يوماً لا تحمل لى إلا الكراهية والبغض وهو مالا أتمناه لك.. ولا لنفسى بعدما التقيت بك.

حاول أن يقاطعها، ولكنها لاحقته مستطردة:

ـ يا حسام.. لم يعد فى صدرى مكان للمزيد من الأحزان.. فأنا أصبحت أشعر وكأنى موجة تطفو وتغوص فى قلب البحر وهى فى رحلة طويلة على أمل أن ترسو على شاطئ الحقيقة ذات يوم.. أنا فى انتظار حكم القدر.. وأعتقد أنه من الأفضل لك ألا تربط مصيرك بمن لا يملك القدرة على تحديد مصيره.

حاول أن يلامس كف يدها ولكنها أفلتت منه مسرعة وهو يقول بصدق:

ـ سأسبح مع هذه الموجة حتى نصل معاً إلى بر الأمان.

أجابت والرضى يرتسم على ملامحها:

ـ يكفينى فقط أن أسمعك وأنت تنادينى.. يا ابنة عمى.

ـ ولكنى أطمع فى أكثر من ذلك.

ـ أما أنا فليس لى الحق فى الطمع.. أنا أنتظر فقط ما تجود به الليالى.

وقفت بهدوء وهى تتأهب للانصراف.. ومدت يدها قائلة:

ـ حتماً سنلتقى يوماً.. إذا ما وصل أحدنا للحقيقة ليخبر بها الآخر.

ضغط بأصابعه على كفها وهو يردد فى وجوم:

ـ الحقيقة التى تخصنى أنا أشعر بها فى وجدانى.. وسأسعى لأن أخبرك بها مهما كانت الظروف.. سأراك بخير يا ابنة عمى:

و.. انصرفا كل منهما إلى طريق مختلف.



لحظـة عصيبة، لم تعـد تحتمل أى حـدث آخر مهما كان قـدره فى عمر الزمـن، وكأنهـا النفس الأخير الـذى انطلق من صدر إنسـان يتأهب للرحيل عـن ذلك العالم المتوحش.. لحظة اسـتجمعت فى ثناياهـا كل معان التحدى والتمرد والإحساس بالظلم.

تلـك اللحظة التى اقتربت فيها خديجة من ابنتها هيام قبل أن تدعى النوم كعادتهـا كل ليلة بعد آخر حوار بينهما.. وهمسـت إليها بتوجس وخوف من عدم استجابتها أو الإنصات إليها.. وتساءلت:

ـ وماذا بعد يا هيام؟!!

وعلى غير المتوقع منها أجابتها بهدوء شديد:

ـ عن أى شىء تتحدثين يا أمى!!

ـ هل سنظل هكذا كالغرباء.. ونحن يجمعنا مكان واحد.. بل وفراش واحد؟!

قالت بنبرة مقهورة:

ـ الغربة يا أمى أصبحت جزءاً من كيانى.

دنت منها وهى تحاول أن تضمها إلى صدرها.. وهمهمت:

ـ تعالـى يا هيام إلى صدر أمك.. فأنا لا أحتمل رؤيتك وأنتى تقاسـى من

عذاب الحيرة والشك.. فأنتى أغلى ما فى وجودى ولن أسمح للظنون أن تدمر حياتك.. وسأخبرك بكل شيء لعلك تتخلصين من دواماتك.. و..

بدأت تستعيد معها أحداث الماضى البعيد، وأخبرتها كيف تربصت بها أقدار الدنيا وانتهكت حياتها السعيدة مع زوجها وشتتت أسرتها الصغيرة بعد رحلة حب عظيمة جمعت بينهما.. أخبرتها كيف تكالبت الظروف فى صورة المؤامرة وجعلت منها فى موقف الزوجة الخائنة وهى بريئة أمام الله من كل الاتهامات التى حوصرت بها بسبب الغيرة العمياء التى سيطرت على والدها من شدة حبه لها ولم يدع لها الفرصة لكى توضح له ملابسات الموقف الذى رآه مع ابن خالتها الذى كان يعيش مع والدته فى المسكن القريب من مسكنهما قبل أن يرحلا بعد تلك الواقعة ولم تره بعد ذلك نهائياً.

تساءلت هيام بحنان شديد:

ـ ما الذى حدث يا أمى.. وما هو الموقف؟!

أطلقت تنهيدة من صدرها كأنها تطلق سراح أسرار طال سجنها خلف قضبان أضلعها.. ثم قالت:

ـ كانت خالتى فى هذا الزمن قد اعتادت على مد يد العون لى لكى تساعدنا على مواجهة ظروفنا المعيشية بعد أن تخلى جميع أقرباء وأهل والدك عنه، وأصبحنا نواجه حياتنا بمفردنا والمسئوليات تتزايد يوماً بعد يوم.. وكثيراً ما كنت أخفى عن والدك ما كان يحدث من خالتى لمعاونتى، كنت أخشى عليه من الإحساس بالعجز ومذلة السؤال. إلى أن جاء اليوم اللعين الذى تعرضت فيه اختك جيهان لمرض مفاجئ أصابها بالتشنجات المرعبة.. حملتها فوق

كتفى وأسـرعت بها وأنا فى حالة هيسـترية وذهبت لخالتى أسـتنجد بها لأن والدك كانت طبيعة عمله تستلزم تنقلاته إلى مدن بعيدة ولا يعود إلى متأخراً فى المساء ولولا وجود ابن خالتى الذى ذهب بى إلى المستشفى وتم إسعافها بسـرعة واشـترى لى الأدوية اللازمة وبعض الاحتياجـات الضرورية، ثم عاد بـى إلى منزلى وهو يحمل جيهان ودخل غرفتـى ليضعها فوق الفراش وفى هذا التوقيت المتوتر عاد والدك ليشاهده وهو ينصرف من غرفة النوم وكانت الكارثة التى لم تستغرق أكثر من ثوان أطلق فيها والدك ثورته العارمة وأعلن مـن خلالها انفصالنا عن ارتباط الزوجية وانصـرف، وتوالت الأحداث بعدها فى سلسلة من المواقف التى استهدفت حياتى بكل قسوة وظلم بمباركة أهله وبعض أصدقاء السـوء، واكتشفت بعدها بأننى أحمل فى أحشائى طفلاً آخر وكنتـى أنتى يا أغلى النـاس.. وكأنك اتيتى الى الدنيـا لتحملى معى وزراً لم أرتكبه فى الواقع.

دسـت هيام رأسـها فى أحضـان والدتها، وكأنهـا تخفـى مدامعها التى انفرطت بغزارة حتى كادت أن تمنع عنها الرؤية، ثم قالت بصوت ضعيف:

ـ مسـكينة يا أمـى.. لقد تحملتى مـا لا يتحمله البشـر.. كافحتى وحدك وسـهرتى الليالـى وحدك. وظلمتى وحدك.. وقاسـيتى وحـدك ونحن جميعاً نراقبك بجفاء وبكل غباء وأنانية.

ربتت على كتفها بحنان وهى تردد قائلة:

ـ يكفينى وجودك أنتى وأختك فى حياتى.. و..

غابت للحظة عن تركيزها ثم عادت تهمس متساءلة وكأنها تحدث نفسها:

.. تراها أين هى الآن.. لقد أوحشـتنى كثيراً.. فهى مسـكينة أيضاً خبرتها القليلة فى الحياة جعلتها تستسـلم لرغباتها فاختل توازنها وأصبحت لا ترى إلا ما ترغب فيه فقط.

ـ لا تزالى تلتمسـين لها الأعذار بعد كل ما حدث منها.. أنا فى الحقيقة يا أمى لا أعرف كيف طاوعتها مشاعرها أن تساهم فى الافتراء عليك.. بل علينا أنا وأنتى!!

أجابت برفق:

ـ فـى النهاية هى ابنتـى.. ولا أتمنى لها إلا كل خير فـى حياتها..وكل ما يقلقنى أننى لا أعرف أين هى الآن. وكيف. تعيش وحدها؟!

لـم تكن خديجـة أو هيام تـدركان أن جيهان أصبح لهـا عالمها الخاص تديره من خلال وجدانها المشـتت وطموحاتها الجامحة وبأعماق قد حولتها إلـى مقبـرة مظلمة قبـرت فيها كل أحاسـيس الانتمـاء أو التعاطـف أو أية مشاعر إنسـانية تحول دون إشباع نزعة الأنانية التى سيطرت تماماً على كل تصرفاتهـا.. خاصة مع أحمد فهمى الذى اسـتطاعت أن تمحـو ذاكرة كيانه وحولته إلى مجرد أداة أو دمية طيعة تحركها كيفما تشـاء، وأحاطته بشـباك مصيدتهـا فأصبح سـجيناً بلا إرادة لكل تعليماتها. فمنذ عودته من السـويد وهو يحمل أحلامه الزائفة وهى تخطط له مسار خطواته دون مقاومة منه أو البحث عن أى مبرر لكل تصرفاتها معه.. فاجأته بشراء معرض الأثاث باسمه وبشـقة فاخرة أيضاً كان يحمل أثاثها أثناء رحلته البحرية أثناء عودته، وهو يسـتقبل هداياها كالمسـحور بعدما أقنع نفسـه بأن حبها له هو الدافع لكل ذلك.. ولهذا كان ينفذ أوامرها بلا تعقيب وأنشأ شركة لاستيراد الأثاث تمهيداً

لممارسة عمله الجديد بديلاً لوظيفته المصرفية.

وفى أحدى لقاءاتهما، انتابه إحساس بأنه الطاووس المبهر الذى تتسابق عليه أعين الحسناوات، وفاجأها بسؤال فى محاولة للتودد إليها:

ـ متى يا حبيبتى سنستمتع بعش الزوجية داخل منزلنا الجديد؟!

رمقتـه بنظرة لا تحمل إلا معنى واحد فقـط.. وكأنها تقول له ماذا تعنى بهذا السؤال يا أبله.. وأجابت بلا مبالاة:

ـ أى عش.. وأى منزل؟!!

إزدرد ريقه بصعوبة، وكأنه يبتلع كيانه كله أمامها.. ثم همس باستحياء:

ـ ألن نحدد موعداً للزواج، حسب رغبة والدك؟!

رمقته شذراً.. ثم قالت باستهزاء:

ـ سأخبرك عندما أحدد أنا ذلك.. ولا داعى للحديث فى هذا الشأن مرة أخرى.

حاول أن يكون لطيفاً وهو يقول:

ـ لا أسـتطيع فراقك أكثر من ذلك.. ثم أن كل شــىء متوفر فى منزلنا ولا ينقصنا شيئ.

وكأنها شقت عنقه بسكين حاد.. قالت بحزم:

ـ هذه ليست شقتنا ولا منزلنا.

انفرجت شـفتيه فى بلاهة حقيقية بعدما احتوته الدهشة بقوة.. وقبل أن يعلق بحرف واحد.. لاحقته قائلة بجدية:

ـ هذه الشقة سنخصصها لضيوف أبى.

قال دون وعى:

ـ ماذا تقصدين؟!

ـ أقصد ما سـمعته الآن.. وأكرر لك أن هذه الشـقة هى لاستقبال ضيوف والدى فى الوقت الحالى.. وفيما بعد سنحدد مصيرها.

همس بجبن واضح:

ـ ومصيرنا!!!

ـ هذا أيضاً سأحدده أنا فيما بعد.. و..

و.. اتجهت إلى سيارتها واستقلتها ثم حادثته من خلال نافذة الباب الذى بجانبها قائلة وكأنها تأمره:

سأراك فيما بعد.

وتحركت بالسيارة منصرفة.. وتركته يتابعها بنظرته فى ذهول مثير.

١١

كانت عقارب الساعة تشير إلى الخامسة قبل غروب الشمس بدقائق قليلة عندما تحركت هيام من جانب والدتها بالمنزل لتفتح باب شقتها بعد سماعها رنين الجرس، وما كادت تفعل حتى شعرت برجفة قوية تجتاح كيانها بعنف بعدما وجدت نفسها أمام آخر ما لا يمكن أن تتوقعه.

رددت باندهاش وارتباك شديد:

ـ حسام.. مستحيل.. أقصد.. أهلاً.

قال بابتسامة رقيقة:

ـ هل يمكننى الدخول.

أفسحت له الطريق وقالت بترحاب:

ـ تفضل يا حسام.

نهضت خديجة من مكانها لاستقبال ذلك الغريب الذى أتى إلى منزلها، وقبل أن تنطق بحرف واحد فوجئت به يقول بوجه باشى:

ـ مساء الخير يا هانم.. مؤكد حضرتك زوجة عمى!!!

التفتت نحو ابنتها وهى فى ذهول لتتأكد من أنها هى الأخرى سمعت ما قاله الشاب، وأدركت هيام فى حينها أن عليها توضيح الموقف، وأسرعت

تقول بود حقيقى:

ـ هذا حسام ابن عمى الذى حدثتك عنه يا أمى.

قالت خديجة بنبرة حذرة:

ـ مرحباً يا ابنى.. تفضل.

وأشارت إليه بالجلوس وجلست فى المقعد المواجه له، بينما ظلت هيام واقفة فى مكانها وهى تحاول أن تستجمع توازنها لعلها تستوعب ذلك الموقف المفاجئ.

وبصدق كبير بدأ حسام حديثه قائلاً بثبات:

ـ أرجو ألا أكون قد تجاوزت حدود المنطق بحضورى المفاجئ.. ولكنى لم أجد وسيلة أفضل من ذلك لأثبت فيها لهيام أننى صادق فى مشاعرى تجاهكما.

تقدمت هيام وجلست فوق المقعد المجاور لوالدتها، وهى تتابعه فى صمت أقرب إلى الشرود.

قالت خديجة بهدوء:

ـ نحن سعداء بوجودك بيننا.. ولكن.. أقصد لابد أن هناك أسباباً قوية دفعتك لحضورك بعد كل هذه السنوات الماضية!!

أسرع قائلاً بحماس:

ـ نعم لدى أسباب كثيرة.. وأهمها هو أن أقف بين يديك يا زوجة عمى لأطلب منك أن تسامحيننا جميعاً على ما اقترفناه فى حقك من ظلم وقسوة

ويسرنى أن تعتبرينى ابنك الأكبر.

قالت بجدية:

ـ أنت لا ذنب لك يا بنى.. فالماضى هو المسئول عن كل شىء.. وأنا لا أحمل ضغينة لأحد منكم.

أجاب بجرأة وتأدب:

ـ هذا ما شجعنى لذلك التصرف ليقينى تماماً بأن حضرتك أم مثالية ومربية فاضلة وسوف تستميلك مشاعرك لكى تصفحى عنا. وأتمنى من كل قلبى ألا ترفضين مطلبى بعد قناعتك بأن لا ذنب لى فى أى شىء.

قالت وهى تدقق النظر إلى عينيه:

ـ أى مطلب تريده؟!!

هاجمه الاضطراب وهو يجيب قائلاً:

ـ يا زوجة عمى.. أنا أرغب وأتمنى الارتباط بهيام.. ابنة عمى..و..

التفتت تجاه هيام التى زاغت ببصرها بعيداً عنه وقد تملكها الذهول تماما، ثم عادت لتنظر إلى أمها وكأنها تستغيث بها من هذا الموقف المثير.

بدت خديجة متماسكة وهادئة هدوءاً مثيراً، وتوجهت إليه مرددة بنبرة مسالمة:

ـ وكأنى أرى صفوت عامر أمامى.. و..

شردت بخيالها بعيداً وكأنها تستعيد الموقف المشابه الذى واجهته منذ سنوات طويلة مضت فى مقارنة غير عادلة ما بين الماضى والواقع.

ثم فاجأته متساءلة:

ـ هل أهلك يعلمون بمطلبك هذا؟!!

شعر بجفاف حلقه. حتى كاد أن يفقد النطق.. وبصعوبة بالغة تمتم بارتباك واضح:

ـ أنا لست مسئولاً عن موقفهم.. أنا أحب هيام وأحترمها وأقدرها، وأتمنى بكل مشاعرى أن تصبح زوجة لى ونبدأ حياتنا معاً.. المستقبل أمامنا ولن نلتفت لذلك الماضى المظلم.

ترقرقت ابتسامة خفيفة على طرف شفتيها.. ثم تأملت وجه هيام للحظة، وأعادت نظرها تجاهه مرة ثانية، ثم قالت وهى تطلق تنهيدة من صدرها:

ـ إذا كنت تدرك كما تقول إننى تعرضت للظلم من عمك وعائلته، فأنت بالتأكيد لا تعلم ولا تدرك ما هى تبعيات ذلك الظلم.. فأنا بسبب لحظة وهمية دفعت ثمناً باهظاً خلّف وراءه جراحاً لم تلتئم بالرغم من مرور تلك السنوات الطويلة.. وانكسارات متتالية، كانت طعنات غدر قاسية سواء من البشر أو الزمان.. أنا على يقين بأنهم لم يخبروك بالحقيقة، ونالوا من كرامتى وسمعتى دون هوادة أو عدالة، وكل ما كان يهمهم هو الفتك بى والقضاء على وجودى إنتقاماً واعتقاداً بأننى غويت عمك وسعيت بأن أمزق صلته بهم.. و..

قاطعها دون إرادته:

ـ أنا لا يهمنى موافقتهم أو موقفهم فأنا...

أوقفته بحدة مصحوبة بالحسم:

ـ وأنا يهمنى ابنتى.. ولا أرغب ولا أتمنى أن تواجه نفس المصير الذى واجهته أنا.

وقبل أن تستطرد فى حديثها، فوجئت بتدخل هيام وهى تردد قائلة:

ـ انتظرى للحظة يا أمى..

ثم توجهت بكلماتها إلى حسام متساءلة:

ـ وماذا عن الوعد؟!!

ـ أى وعد!!!

ـ الوعد الذى وعدك به عمك بخصوص الشركة المستقلة لحسابك.

أدرك حسام بأنها تحاول أن تستنطقه بكلمات محددة أمام والدتها.

فأجاب بحذر وترقب:

ـ عمى لن يخذلنى بعدما أوضح له حقيقة الأمر.. فهو يثق فى.. ولا أعتقد أنه سيتصدى لرغبتى.. كما أنه يعلم تماماً أننى لست طامعاً ولا انتهازياً ودليلى على ذلك هو أننى لم أطرح يوماً فكرة ارتباطى بجيهان، بالرغم من تلميحات والدى المتكررة لهذا الشأن.

راود هيام إحساس بالارتياح وعزة النفس قبل أن تقول:

ـ يجب أن تعلم يا حسام أننى لا أنكر إحساسى بالرضى وبالأمان منذ أن رأيتك لأول مرة.. فأنت شاب تتمناه أى فتاة مثلى.. وأرى فيك رمزاً للشهامة والرجولة والصدق.. و..

قاطعها وهو مبتهج:

ـ هذا يكفينى لكى يطمئن قلبك.. وأن أنال رضى زوجة عمى. قالت مسرعة:

ـ ورضـــى أهلك أيضــاً.. وهذا شــرطى الوحيد، فحق أمـــى وكرامتها فوق كل الاعتبـارات والرغبــات.. وحتى لــو تنازلت أمى الغالية عــن حقها فأنا من المستحيل أن أكرر المأساة التى عاشت فيها بسبب استسلامها للظلم حتى ولو كان بدافع حبها لوالدى.. أنا لن أســمح بأن أضع نفسى ومشاعرى فى موقف الدفــاع أو المراوغة أو الاســتكانه.. فالمال لا يصنع كياناً للإنســان، ومشــاعر الحــب ذاتها لا يمكن أن تدوم فى ظل مناخ يحيط به القهر والظلم والضعف، الحب يحتاج للقوة التى تحميه والكبرياء الذى يرويه والسلام الذى لا يشقيه.. وأنا أريد أن أعيش فى سلام مهما كانت التضحيات فى سبيل أن أحقق ذلك.

قال بصدق حقيقى:

ـ حديثك هذا أثبت لى أننى لم أكن مخطئاً عندما أتيت إلى هنا.

ثم التفت تجاه خديجة العشرى وأردف بهدوء شديد:

ـ أرجــو يا زوجة عمى أن تمنحينى الفرصة لكى أكفر عن ذنوبهم جميعاً تجاهك.. و..

نهض بثبات مستطرداً:

ـ وأنا على يقين بأن الشمس دائماً لا تشرق إلا لمن ينتظرها.

واستأذن منصرفاً،دون انتظار لأى تعقيب منهما.

١٢

المفاجأة... كلمة قد لا يتوقف عندها البعض كثيراً، ولكنها فى حقيقة أمرها تحمل فى طياتها العديد مـن المتناقضات التى تجعلها مصدراً لكل التفاعلات الكونيـة والبشـرية، مثلما تسـقط الأمطار فى غيـر مواسـمها فتمنح البعض البشـرى وتبدو كالكارثـة لبعض آخر.. وكمـا تهبط فى بعـض الأحيان ثروة طائلة على إنســان فتميته الفرحة ويستقر بعدها الحزن والأسى فى قلوب أهله وأقربائه. فتصبح المفاجأة وكأنها كلمة السـر للحياة نفسـها بكل ما فيها من مسرات ومعان وصراعات ومشاعر بمختلف صورها وأهدافها وأيضاً مبرراتها.

هكـذا كان حــال أحمد فهمى عندما تلقى مكالمة جيهـان الهاتفية تخبره فيها بأنها ترغب فى لقائه وحددت الموعد والمكان فى شقتهما الجديدة.

المفاجأة أفقدته القدرة على اسـتبيان حقيقة أحاسيسه الوجدانية، فترنح مع خياله تحت قبضة وهم السعادة وغموض التوقعات، وحيرة الإثارة والقلق والأمل والخوف ما بين الترقب والتمنى.

كان وهـو فى الطريق إليها يلهث وراء التسـاؤلات الحائـرة التى هاجمت عقله وأربكت وجدانه وهو يبحث عن إجابات لها فيقع فريسة للفشل.

ماذا تريد جيهان؟!!

ردد ذلك السؤال الحائر فى صدره..

.. تراها ستحدد موعداً للزواج، أم دفعها الشوق واللهفة لرؤيتى؟!!

.. هل هى دعوة للخطيئة!! أم قرار يؤدى إلى الفراق؟!

.. ما هورصيد تلك اللحظة!! عتاب ولوم، أم ثورة وغضب.. متعة وإثارة أم تعاسة وشقاء.

وجدها فى انتظاره داخل الشقة، كانت متجملة فى أعلى محاولاتها للتجمل، وابتسامتها هادئة فى موائمة مع نظرتها الحالمة.

استقبلته ببشاشة قائلة:

ـ أهلاً يا حبى الوحيد.. أشتقت إليك كثيراً.

اهتزت أوداجه واضطربت مشاعره من شدة إحساسه بالزهو وغرور العاشقين.. وأجاب وهو يجلس أمامها:

ـ فى الحقيقة.. أقلقنى كثيراً طول غيابك.. ولم أجد مبرراً لذلك.

ضحكت بميوعة وهى تقول:

ـ أما زلت لا تعرف طبيعتى..فأنا يا حبى الوحيد أحب أن أتعايش مع اللحظة بكل مضمونها.. أغوص فى أعماقها لألتقط منها كل ما يسعدنى.

إزداد نشوة، فانتقل إلى جوارها على الأريكة الدائرية وتناول كف يدها برفق وهو يردد:

ـ سعادتى أن أراك دائماً بجانبى.

قالت وهى تسحب يدها:

ـ لذلك علاقتنا مستمرة إلى الآن.. وأتمنى أن تظل هكذا دائماً.

تساءل بلهفة على أمل أن يستمع إلى جديد بشأنهما:

ـ هل اتصل بك والدك؟!

أجابت باقتضاب واضح:

ـ لم يحدث منذ فترة طويلة.

تراجع بظهره قليلاً وقد شرد ذهنه مع التساؤل الحائر.. ماذا تريد جيهان.. ثم عاد والتفت إليها قائلاً:

ـ آه لو تعلمى قدر سعادتى عندما تلقيت مكالمتك لمقابلتك هنا..

لقد شعرت ب...

قاطعته بثقة:

ـ نحن فى انتظار بعض الضيوف.

اختطفته المفاجأة وهو يتمتم مذهولاً:

ـ ضيوف.. أى ضيوف؟!!

وكأنها لم تسمعه، ونهضت من جواره وأطلت ببصرها من خلف زجاج النافذة على الطريق. ثم عادت فى اتجاه الباب الخارجى للشقة وهى تردد:

ـ لقد حضروا بالفعل.

وهو قابع فى مكانه بلا حراك، يتابعها مشدوهاً لا يعرف كيف يتصرف وهو يرى غريبان وامرأة برفقتهما وجيهان ترحب بهم بشدة، وتولت مهمة التعارف بين

الجميع ببعض الكلمات والأسماء. ولم يستقر في ذهنه أي شيء مما قالته حيث فقد قدرته على التوازن لاحتواء الموقف وظل صامتاً مع ابتسامة بلهاء استقرت على طرف فمه. وبدون مقدمات تناول كل من الرجلين سكيناً حاداً من حقائبهما الجلدية الصغيرة ثم اتجه الأول لأحد المقاعد الوثيرة وذهب الآخر للمقعد الثانى وبدءا بهدوء شديد يمزقان الوسادتين وتفرغ كلاهما فى إلتقاط بعض الأكياس المندسة داخل المقاعد ثم أتجها إلى مقعدين آخرين ونفذا نفس المصير وحملوا الأكياس داخل حقائبهما الصغيرة ثم اتجها فى طريقهما للانصراف وهم يرمقون جيهان بنظرات راضية كلها امتنان ومودة.. و.. انصرفا بلا تعليق.

انفلتت من بين شفتى أحمد فهمى كلمات دون إرادة وتساءل والدهشة تسيطر على كل ملامحه:

ـ ما هذا ما معنى ذلك؟!!

وقفت أمامه وقالت بكل ثبات:

ـ هذا معناه قيمة خمسة وعشرون مليوناً من الجنيهات.

وقبل أن يتفوه بحرف واحد.. لاحقته مستطردة:

ـ وحصتنا فى هذه الصفقة خمسة فى المائة.

قال من خلال ذهوله:

ـ أى صفقة؟!

ـ لا تحاول أن تخبرنى بأنك لا تعلم حتى الآن إنها صفقة هيروين وكوكاين.

انتفض فى فزع حقيقى وقال صارخاً:

ـ مـاذا تقولين.. وكيف سـمحتى لنفسـك أن تشـتركى فـى عملية قذرة مثـل هذه.. كيف سـمحت أخلاقك أن ترتكبين ذلك العمـل الإجرامى.. وكيف تقحمينني فى تلك الجريمة و..

قاطعته مرة أخرى بحسم:

ـ قلت لك أن نسبتنا خمسة فى المائة.. ماذا تريد أكثر من ذلك؟!

تراجـع بصعوبـة قبل أن ينفذ رغبته بأن يصفعها بقوة أو يسـقطها على الأرض ويخطو فوقها وهو منصرفاً.. وحاول أن يتماسك مردداً بعض الكلمات وهو ينظر إليها بإزدراء وضيق قائلاً:

ـ إذن أنتـى تاجـرة مخدرات.. تدعيـن الفضيلة والشـرف وأنتى أبعد ما تكونين عن تلك الخصال.. أنا أشـعر الآن بالمهانـة لأننى خدعت بك.. ومثلك لا يسـتحق الاحتـرام أو أية مشـاعر جميلة.. مكانك هو السـجن مـع أمثالك المجرمين أنا سأنصرف وسأبلغ الشرطة عنك لتنالى العقاب الذى تستحقيه.

وقبل أن يتحرك بخطوة واحدة.. فاجأته قائلة بفتور مثير:

ـ توقف عن تلك الثرثرة البلهاء.. ولا داعى لأن تتقمص الفضيلة والشرف.. فأنت أيضاً ما سـعيت ورائى إلامن أجل المال وثراء أبى.. أنت قايضت بالمال كل شـىء فى حياتك.. حبك وعلاقتك بهيام شـقيقتى.. وشـهادتك وعائلتك.. وشـهامتك بعـد أن قبلـت بما هـو ليس من حقك.. سـال لعابك على الشـقة والمعرض وأحلام المسـتقبل وما سـوف يعود عليك بالنفع والاسـتفادة من علاقتى بك.. أليس كذلك يا حبى الوحيد!!!

همس كأنه يحدث نفسه:

ـ أكاد لا أصدق نفسى وما أراه أيضاً أمامى الآن!!!

قالت وهى تبتسم بسخرية:

ـ لا... لابد أن تصدق نفسك.. وأنت أمامك خياران..فإما أن تستغل ذكاءك كعهدى بك.. أو أن ترفض وترشد عما رأيت للشرطة..و..

صمتت لبرهة وهى تحدق إليه بتركيز.. ثم أردفت قائلة:

ـ اخبرهم وارشدهم.. بكل الحقيقة.. بأنك سافرت إلى السويد واستوردت الأثاث باسـمك.. ووضعته داخل الشـقة التى تمتلكها بـكل ارادتك.. ثم أتيت بأصحاب الصفقة ليأخذوا بضاعتهم.. فكل شـىء يـا حبى الوحيد يثبت أنك أنت المدبر بفكرك الشـيطانى الذى جعلك تفتتح معرضاً للأثاث لكى تمارس فيه تجارتك الملوثة بحذر وأمان. قال وهو محبط:

ـ أنتى أخطر بكثير من كل التصورات.

ـ أنـا أدركت الحياة أكثر منك. فالقوة يا عزيزى معناها السـعادة والأمان والثقة... وتحقيق الأمال والأمانى سوف تمنحك الإحساس بأنك تملك كل شىء حتى المشاعر والمبادئ.

هذه القوة يا حبى الوحيد مصدرها المال.. والمال فقط لا غير.

و.. تناولـت حقيبة يدها واسـتدارت لتتأهب للانصـراف. وبعد أن خطت لبضعة خطوات، توقفت والتفتت إليه مرددة:

ـ سـأتركك لتختـار ما بين الاختيارين.. وسـأنتظر منك القـرار ثم تركته منصرفة دون أن تنتظر منه أى تعقيب.



جيهـان.. التلميـذة النجيبة لأبيها، لم يرو ظمأها المـال الوفير ولم تطفئ لظـى أعماقها مشـاعر الغيرة وسـيطرتها المتجبرة على كل مـن حولها.. لم يرضها أنها حرمت شـقيقتها من حبيبها ومن حنان والدها ومن اسـتقرارها النفسـى.. لم تكتـف بكل ذلك بل تحولـت كالإعصار المدمر وراحت تشـعل نيـران الغضب والحقد فـى كل بقعة تطؤها قدماها، أخطـرت عمها العجوز بما فعله ولده حسـام فأحالت حياته إلى جحيم بعد أن طاردته العائلة بثورة عارمـة نـال فيها ما نال من تهديـد ووعيد وحاصروه بلعناتهـم، خاصة أبيه المسـن الذى حذره من الاقتراب من تلك الفتاة اللقيطة وبأن مصيره سيكون الطـرد والهجر بعيداً عن قوام العائلة العريقـة.. كما أتاه وعيد عمه المغترب بأنه سـوف يلغى كل وعوده السـابقة وسـيحرمه من تحقيق طموحاته ولن يتركه يهنأ برغبته الطائشة حتى ولو اضطرته الظروف إلى اغتيال هيام التى سـوف تتسبب فى جراح لجيهان ابنته الشرعية الطاهرة والبريئة. والتى كان يأمل ويمهد لزواجها من حسام ابن عمها.

لم تسـتطع جيهـان أن تكبح جماح البـركان المتأجج فـى أعماقها الذى كان ينفث مع أنفاسـها ونبضات قلبها كل مشاعر الحقد الأسود عندما ذهبت إلى مقر عمل هيام لترضى رغبتها فى التشـفى والشـماتة على أمل أن تراها بائسـة ومحبطة بعدما امتنعت عن مسـاعدتها هى ووالدتها، تمنت أن تسمع

منها بأنها قد توقفت عن استكمال محاولتها للحصول على درجة الماجستير بعدما فقدت القدرة على شــراء المراجــع والاحتياجات الأخرى اللازمة لذلك.. توقعت أن تراها شــاحبة وذليلة وبأنها ســتتعالى على توســلاتها لكى تعود إليهما مرة ثانية وتصفح عنهما بشرط ألا يتدخلا فى شئونها مرة أخرى.

استقبلتها هيام ببشاشة وفرحة حقيقية وقالت بصدق:

ـ أختى حبيبتى.. كنــت أعلم جيداً أنك لن تطيقى فراقنا.. أنا ووالدتك كنا فى غاية القلق بسبب غيابك عنا.

جلست أمامها بهدوء وهى تضع ساقاً فوق الأخرى وقالت بفتور:

ـ كنت أعتقد أنه سيسعدك غيابى.

ـ كيف يراودك هذا الخاطر.. وأنتى شــقيقتى الوحيدة وأنا وأمك ليس لنا أغلى منك.

حاولت أن تبدو طبيعية ولكن مشــاعرها الدفينة لم تمنحها الفرصة لذلك وأجابت بلا اهتمام:

ـ بالمناسبة كيف حال أمك؟!

رمقتها باستياء قبل أن ترد:

ـ تقصدين والدتنا.. أليس كذلك!!

تساءلت باستفزاز مقصود:

ـ هل ما زالت تخفى سرها عنك؟!!

أجابت وهى تكبت غيظها:

ـ السر.. لا وجود له إلا فى خيالك المريض.

ـ أنتى حرة فى أوهامك.. تماماً مثلما أوهمك أحمد فهمى بحبه الزائف لك.

رددت بلا إرادة.

ـ وما دخل أحمد فهمى فى ذلك.. ومتى وكيف التقيتى به؟!!

ابتسمت بكل تشف وخبث ثم قالت:

ـ جئت أدعوك لحفل زفافنا أنا وأحمد فهمى.. فسوف يتم زواجنا قريباً.

أصابتها المفاجأة برجفة عنيفة سرت فى جسدها بعنف مؤلم.. وبصعوبة بالغة حاولت أن تتوازن وهى ترد إليها الصاع صاعين.. وقالت بترقب:

ـ يبدو أن المناسـبات السعيدة تتوالى تباعاً.. فأنا أيضاً اتفقت مع حسام ابن عمى على الزواج قريباً.

كان سـبب ذلك الحوار هو بداية الحرب السوداء التى أعلنتها جيهان على الجميع.. تخلصت فيها من كل مشاعر المودة والانتماء، وانتزعت من أعماقها كل مفاهيم القيم والأخلاقيات والمنطق.. لم تبق فى صدرها غير حصاد الشر والغيرة والحقد.. وفعلت ما فعلت بعد ذلك.

ثم هداها تفكيرها بمعاونة الشيطان أن تتحين فرصة عدم وجود هيام فى عملها ذات مسـاء، واتجهت إلى مقر المؤسسـة وتلتقى بشريف سالم بعدما ألحت على مقابلته منفردين.

وفى اللقاء تقمصت الكيان المقهور والضعيف.. وبادرته قائلة:

ـ لم أحضر لمقابلتك إلا بعد أن يئست تماماً من حل طلاسم كثيرة أوقعتنى فى حيرة مدمرة.

تساءل بهدوء:

ـ أى طلاسم يا آنسة جيهان.. وما هو دورى فى ذلك؟!!

ـ حضرتك أساس كل شىء

ـ أنا!!!

ـ نعم أنت.. وفى الحقيقة لا أعرف كيف أبدأ معك حوارى.

قال والدهشة تملأ رأسه:

ـ بأى شىء يا آنسه جيهان؟!!

أجابت بثبات يشبه الصدق.. و..

راحت تسرد إليه قصة هيام بصورة مشوهة ومثيرة.

أخبرته كيف حاولت أن تسقط خطيبها أحمد فهمى فى حبائلها، ولولا الرباط العاطفى الأعظم الذى يربطه بها لوقع بالفعل فى فخ هيام.. وأخبرته أيضاً كيف أفسدت حياتها مع والدتها وكذلك مع والدها بالرغم من أنها ابنة غير شرعية.. و..

توقفت لبرهة حاولت فيها أن تتأمل أسارير وجهه باحثة عن تأثير كلماتها عليه.. ثم استطردت وهى تدقق النظر إلى عينيه وكأنها تتأهب للانقضاض

على فريستها التى أصابها الدوار:

ـ وكانت الكارثة الكبرى عندما أخبرتنى بقصتها معك..فلم أتحمل أن أرى رجلاً محترماً مثلك وله تلك السمعة الطبية أن يخضع لابتزاز هيام المريضة نفسياً.

ردد وكأنه يحدث نفسه:

.. قصتى مع من؟!!!

أجابت بنبرة تملؤها الحسرة والانزعاج:

ـ أنا لا أصدقها فيما تقوله عنك؟؟ فهى تدعى أنك تطاردها باستمرار وتلاحقها بكلماتك المعسولة، وتتوسل إليها لكى تستجيب لنزواتك معها ودأبت على مماطلتك فى طلب الارتباط بها بالرغم من أنك عرضت عليها كل ما تملك من أموال وشركات ولكنها للأسف كانت تراوغك عن عمد لأهداف كثيرة لديها.. منها أن تستفيد من الإجازات الطويلة التى تساعدها على الماجستير المزعوم.. وتجعل منك أيضاً ورقة ضغط لإثارة أحمد فهمى خطيبى بالإضافة لتحين الفرصة المناسبة لكى تقترض منك مبلغاً كبيراً تمنحه لفريستها الجديدة وهو حسام ابن عمى لكى يبدأ به حياته العملية.. لقد حاولت أن تدمرنى كما تحاول الآن أن تدمر كل من حولها وعلى رأسهم حضرتك بعد أن استغلت ثقتك بها ومشاعرك الجارفة نحوها.

كان يستمع إليها وكأنه ينصت إلى نعيق غراب جائع أو إلى نذير شؤم جاءه على غفلة منه.. ثم قال مذهولاً:

ـ أنا لا أصدق ما أسمع!!!

لاحقته قائلة بتحد:

ـ لا تصدق ما تسمع.. أم لا تصدقنى.. أم أنك لا ترغب فى التصديق أصلاً؟!!

أجاب بحسم:

ـ كل شىء أصبح سواء الآن.

نهض واقفاً معبراً عن انتهاء ذلك اللقاء الغامض.. واستجابت جيهان بعد أن تأكدت بأن سمومها قد سرت بالفعل فى شرايينه وتركته منصرفة بلا تمهيد أو تعليق.

لم يحتمل شريف سالم الصبر كثيراً بعد ذلك اللقاء المثير.. واستدعى هيام من إجازتها بعد عدة أيام قليلة.

وبعد أن أجلسها أمام مكتبه.. بادرها بلا مقدمات قائلاً:

ـ آنسة هيام أنتى مديرة مكتبى منذ فترة طويلة.. أليس كذلك؟!

أومأت برأسها مرحبة وأجابت بافتخار:

ـ نعم.. وأنا سعيدة بذلك جداً.

تساءل بحذر:

ـ هل شعرت يوماً أننى أقايضك على شىء.. أو أفرض عليك مغازلتى عنوة.. أو طاردتك فى كل مكان كما تدعين؟!!

نظرت إليه فى ذهول وقالت:

ـ لم يحدث بالتأكيد.. ولكن لماذا مثل هذه التساؤلات؟!

أردف مواصلاً حديثه وكأنه لم ينصت لكلماتها.. وقال:

ـ أنـا لا أنكر عظمة المفاجأة عندما رأيتك لأول مرة، حيث الشـبه الغريب والمدهـش بين ملامحـك وملامح زوجتى الراحلة التى عشـقتها ولم أعشـق بعدها أحداً.. ولا أنكر أيضاً أننى استسـلمت لمشـاعرى المضطربة والحائرة فـى كيفية التعامل معك لكونك شـبيهة لزوجتى الحبيبـة.. أو كابنتى بحكم فارق العمر بينى وبينك..

نعم أنا لا أنكر كل هذا.. ولكنى أرفض بشدة رأيك ونظرتك لى كرجل لديه كل الخصال والصفات المريبة والسيئة.

انسحبت الدماء من وجه هيام قبل أن تتلعثم مرددة:

ـ أنا لا أفهم شيئاً.. ماذا تقصد حضرتك.. أنا..

قاطعها دون تردد:

ـ الإجابات تجدينها لدى شقيقتك جيهان.. أما أنا فليس لدى أى مبرر لكل ما سـمعت منها.. وأنت وحدك التـى تدركين الحقيقة.. إذا مـا كنت أنا بهذه الصورة المشينة أم لا.

أفلتت منها صرخة مكتومة:

ـ جيهان.. هل قابلت جيهان وأخبرتك بكل ذلك.

أجاب وهو متحفز لرد فعلها:

ـ وأكثر من ذلك.. فهى..

وأسرد عليها كل ما أخبرته به جيهان.. ولم ينتظر منها تعقيباً وكعادته للتعبير عن إستيائه وإنهائه للمقابلة.. نهض يثبات مردداً وهو يدقق النظر إلى عينيها قائلاً بحزم:

ـ وأعتقد أن علاقتك بالعمل هنا قد إنتهت من هذه اللحظة.

تحركت ببطء وهى تلملم بقايا توازنها وشتات إحساسها بالمهانة والضآلة.. والظلم.

استدارت لتطوى صفحة بدت ذات يوم مضيئة فى حياتها.. حملت معها التخلص من مخالب الفقر والاحتياج من خلال راتبها الشهرى وتحقيق هدف حياتها بالحصول على الماجستير.

استدارت إلى عالم مجهول لا تعرف مصيرها داخله، ولا تحمل معها إلا مشاعر الخوف والقلق.. والرعب من مفاجآت الزمن.

١٤

الليـل موحش، والظلام دامس كئيب ومخيـف، النجوم رحلت عن الأفق لا شيء غير خواء السـكون، وأصوات مريبة كالصفيح، وكأن الأشجار تتهامس فى رعب ما الذى يحدث فى هذا الكون المبهم.. و..

هيـام تجلس خلـف النافذة تطل إلى ذلـك الفراغ المتناهـى قبيل ظهور بشائر الفجر بسويعات قليلة.

كانت تمسـح السـماء بنظرتهـا الحائرة، وكأنها تبحث عـن حقيقة ما قد تقوقعت فى أعماقها وهى تغوص فى شرنقة قاسية من الغموض والتساؤلات المريـرة واللقيطة التى بلا أم أو أب أو عائل يتولى محاولة الكشـف عن ذلك السـر المبهم الذى طال الانتظار كثيراً لكى تجيب عنه الحياة نفسها ولياليها فى عمرها المتوتر المغمور فى الشجن والحزن والألم.

تساءلت فى صمت!!

لماذا أنا؟! وأين الحقيقة.

أين الخطأ وأين الصواب!!

جيهان تحقق ما تريد بالرغم من بشاعة تصرفاتها.. حققت الحب والثراء والقوة.. حددت هدفها وعرفت الطريق الذى تخطو عليه اكتسبت ثقة الجميع بالرغـم من تكوينها النفسـى الغـادر.. أحمد فهمى تخلى عن كل شـىء من

أجلهـا، باع الحـب بثمن أرخص مـن ذرة التـراب، وألقى بإرادتـه إلى عمق أحضانها وهو مستسلماً وسعيداً تدغدغ الطموحات كل جوارحه وكيانه.

وشـريف سـالم لم يحاول أن يجادلها بـل صدق كل أقوالهـا تحت تأثير المبـررات الكاذبـة التـى طرحتها عليـه.. فكـذب الحقيقـة بإرادته وصدق الأكاذيب أيضاً بإرادته.

ما هذا السحر الذى تملكه جيهان شقيقتى؟!

استطاعت أن تستحوذ على والدنا وعلى ثروته وثقته، وحاصرته بالمنطق الكاذب حتى أصبح كالملحد الذى لا يؤمن بأى شىء غير أنه الأقوى والأقدر والأصوب.

ما هو سر تملكها تلك القدرة المبهمة والتى تتعامل بها مع الآخرين؟!

كيف أسـتطاعت أن تفوز بمسـاندة عمهـا العجوز وحسـام الحائر الذى حاول على اسـتحياء أن يتخلص من سـطوة الأحداث حوله.. ولكنه فشل ولم يستطع أن يتصدى بقوة لكل الاحتمالات التى قد تحتمل الصدق أو الخداع.

كيـف اسـتطاعت بكل سـهولة أن تتجرد من مشـاعر البنوة والإحسـاس بالانتمـاء لوالدتنا أو لى أنا شـخصياً، فعلت ذلك وكأنهـا تتخلص من أحمال ثقيلة قد تعوق خطواتها فى اتجاه تحقيق أهدافها.

أغمضـت جفونها للحظـات، لعلها تجد جديداً فى خيالهـا، ولكنها عادت مقهورة تتصفح سطح السماء المظلم.

ورددت فى همس إلى نفسها.

لابد أنها الأصوب!!

أنا بالحب فقدت من كنت أتوهم حبه.. وفقدت وظيفتى.

وهى بالفراسة وفهمها للدنيا حققت الثراء والقوة!!

أنا بالحنان والانتماء فقدت هويتى كإنسانة وأصبحت كاللقيطة بالرغم من تواجد الأب والأم ولكن كلاهما لم يحاولا إنقاذى سواء عن عدم قدرة أو عمداً.

هى الأصوب.. لأن الآخرين يصدقونها حتى فى أكاذيبها، وأنا يكذبوننى حتى فى مشاعرى.

لماذا لا أصبح مثلها.. وأقتدى بأسلوبها؟!

لماذا لا أذهب إليها لكى ترشدنى إلى الطريق الصواب.. لكى تنقذنى من تلك الدوامات اللامتناهية؟!

سأذهب إليها لكى أستعيد كبريائى ومشاعر الأبوة التى سلبتها منى الليالى الغادرة دون ذنب اقترفته.

سأذهب إليها باكية ومتوسلة لعلها تغفر لى خطيئتى بتمسكى بكل القيم والمبادئ الهشة التى ألقت بى فى ذلك البئر المظلم وأصبحت وحيدة وضعيفة.. و.. تافهة.

لم تنتظر طويلا بعد أن بدأ الفجر يزيح الظلمة من الأفق، وكأنه يعلن تأييده لأفكارها الجديدة.

نعم..سأذهب لمن أدركت حقيقة حياة الدنيا.. سأستعطفها لكى تغدق علينا بالمال مقابل أن أمنحها كل إرادتى وأصبح طوع بنانها فى أى شىء.

لعلنى أنا أيضا أحقق كل ما أريد!!

بدأت ترتدى أبهى ملابسها، وتتجمل بمساحيق المكياج وكأنها ذاهبة لليلة عرسها.

وقفت أمام المرآة العريضة تتأمل نفسها وقوامها وملامحها.وعادت تهمس قائلة:

.. قد يكون مناسباً أن يحن الوقت لأن تقوم تلك الملامح الجميلة بدورها.. وتأثيرها على الآخرين.. قد يكون مناسباً أن أستثمر تلك الإمكانات الآن!!

.. مؤكد هذا الجمال سيكون مقابلة الثراء والقوة والثقة والمكانة..

سأصبح أكثر ثراء من جيهان.. لأننى الأجمل والأذكى والأكثر علماً والأطيب ملامحاً وهذا سيمهد عواطف الآخرين لى.

و..خرجت إلى الطريق بعد أن أشرق صباح غير كل صباح عليها.. وما كادت تخطو عدة خطوات قليلة حتى فوجئت بما لم يكن فى حسبانها نهائياً.

وجدت حسام عامر فى انتظارها داخل سيارته.

ناداها عندما حاولت أن تتجاهل النظر تجاهه.. فاستدارات مضطرة واستقلت السيارة بجواره.

لاحظت شحوب وجهه وارتباك نظرته. وملامح الحزن الشديد الذى افترس أساريره.

وقبل أن يتفوه بحرف واحد.. بادرته قائلة بثبات:

ـ انصت إلى جيداً يا حسام.. فأنت قد تكون أكثر خبرة منى فى أمور كثيرة، ولكن ذلك لا يمنع أن نعترف بإخطائنا.. فأنا وأنت لم نكتشف حقيقة الدنيا ولم نعطها قدر حقها وسطوتها على كل خطواتنا.. أنا وأنت مؤكد كنا نعيش فى وهم وبوهم اسمه الوجدان والمشاعر النبيلة.. أنا وأنت

ولكنه قاطعها بنبرة يملؤها الحزن:

ـ لا داعى للحديث الآن فى مثل هذه الأشياء.. فأنا أتيت إليك أحمل نبأ غير سار ومؤلماً لنا جميعاً.. و..

قالت بتهكم:

ـ أعـرف ما الذى تريد أن تقوله وتخبرنى به.. أعرف أنك جئت لكى تلقى بمبرراتـك أمامــى.. وتصف مدى معاناتك وقلة حيلتك فــى مواجهة الصعاب التى ستحاصرك أو حاصرتك بالفعل، وكل هذا بسببى..أليس كذلك؟!

أجاب وهو مضطرب:

ـ الأيام ستثبت لك أننى ما أحببت أحداً فى حياتى مثلما أحبك الآن..

أحبك وأنا لســت واهماً بذلـك الحب.. لأننى أحببتك بكل حواســى منذ أن رأيتك لأول مرة.. ولأنك كنتى تعيشــين فى وجدانى منذ بدأت أسمع عنك وعن قصتك.. فأنا أحببتك بخيالى أولا وبواقعى أيضاً فيما بعد.

قالت وهى شاردة:

ـ مضطـرة أن أذكرك بأن الحب وحده لا يكفى.. ماذا ســيفعل الحب أمام قهــر الفقر، وتخلى الجميع عنا؟ ماذا ســيفعل لنا الحــب ونحن لا نملك حتى إرادتنا.. القوة الغاشمة لا تواجه بالدموع أو سهر الليالى.

الأحلام حتماً ســتتحول إلــى كوابيس أمام إحساســنا بالعجز.. أنا طردت من عملى ووظيفتى، وتخليت عن اســتكمال دراستى.. وفقدت مودة الآخرين واهتمــام حتى أمى.. وأنــت لا تملك تقريباً قوت يومك دون مســاعدة أبيك أو

عمك.. فماذا بظنك ممكن أن يفعله الحب إذا ما صدقناه أو سعينا إليه.

وبـلا مقدمـات، وكالصاعقة التى تلتهـم أقوى الأبـدان.. والأعاصير التى تقتلع أغنى جذور الأشـجار العتيقة، والسيول التى تجرف فى طريقها كل ما هو يظن أنه ثابت.

قال فى مفاجأة مدوية بحزم:

ـ الشرطة ألقت القبض على شقيقتك جيهان وصديقها أحمد فهمى!!

صرخت بحق:

ـ ماذا قلت.. ماذا تقول؟!!

ـ سـأعيد عليك النبأ.... أقول لك أن الشـرطة قبضـت على جيهان وأحمد بتهمة الاتجار بالمخدرات والانتماء لعصابات المافيا فى الخارج والداخل.

ـ أنت مؤكد تهزى أو جننت فجأة.

همس وكأنه يحدث نفسه:

ـ ووالدك سيأتى غداً.. وسوف أصطحبه من المطار

تمتمت مرددة:

ـ والدى سيحضر.. ولكن.. أختى.. أين أختى الآن

ضغط بأسنانه على فكيه.. ثم أجاب منكسراً:

ـ جيهان قيد التحقيق الآن.. وقد علمت بالخبر بعدما اتصلت بنا منذ ساعات.

فقدت السـيطرة تماماً على اتزانها، وانطلقت جاهشـة فى بكاء أقرب إلى

العويل وهى تردد بهيستيريا:

ـ لا يمكـن أن تفعـل جيهان هذا.. إنهم مخطئـون.. قد يكون أحمد فهمى السبب لأنه جشع وطماع.. جيهان أختى بريئة.. و..

قاطعها بهدوء:

ـ علينا مواجهة الأمر الواقع.. الحقيقة تقول إن أختك متهمة بتلك الجريمة وستنال حتماً العقاب على ذلك الفعل.

قالت وهى شبة منهارة:

ـ ماذا سأقول لأمى.. كيف سأخبرها.. وماذا سنفعل لجيهان؟!!

ـ سـنرى ماذا يمكن أن يفعله أبوكِ.. حتماً سيسـتعين بمحامين كبار فى هذا التخصص.

رددت وهى فى ذهول حقيقى:

ـ ماذا سأفعل.. ماذا سأفعل؟!!

و.. تركـت السـيارة دون أن توجه إليه كلمة واحـدة.. واتجهت فى طريق عودتها إلى منزلها.

وبمجـرد عودتها إلى داخل الشـقة، بدأت تتخلص من ملابسـها بصورة فوضويـة ثم اتجهت إلى حجرة الاسـتحمام ووقفت داخل البانيو وأسـقطت المياه بغزارة فوق جسـدها العارى وغمرت المياه شـعرها حتى التصق بكل وجهها، وراحت تغتسـل بقوة وكأنها تزيل عن كيانها ذلك الشوك السام الذى شعرت به يخترق مسـامها بعنف.. بدت وكأنها تمسح عن كيانها هذا الوحل

الوهمى الذى جال لعدة سويعات داخل أعماقها ولوث كل نبضة فى وجدانها.. واختلطت دموعها مع قطرات المياه المتدفقة كالشــلال، وكأنها ترغب فى أن تطهر من خلالها ومن خلال ندمها وليس من خلال مياة الاستحمام.

وبعد دقائق ارتدت ملابسها العادية، وألقت بجسدها فوق الفراش وسلطت نظرتها إلى ســقف الغرفة واخترقتها بخيالها وكأنها تطلق بصرها إلى عنان السماء والأفق البعيد.

ورددت بنبرة مسموعة:

.. اغفــر لى يــا إلهى.. اغفر لى يــا إلهى. وأعوذ بك من شــيطان الخطيئة وشرود العقل.

واستســلمت للنوم على ضوء النهار.. وكأنها تنشــد النعاس وهى آمنة من هواجس الليل وهى فى أحلام يقظتها.

١٥

الإحساس بالزمن عند خديجة وهيام قد توقف، بالرغم من أن الليالى كانت تتوالى بسـرعة مذهلة مع أحداثهـا.. ليال مظلمـة.. كان الصمت الكئيب هو المسـيطر على حياتهما فى تلك الفترة، لا شـىء يجمع بينهما سـوى دموع الحسـرة والحزن والصدمة بعدما فوجئا بنبأ القبض على جيهان فى جريمة أبعد ما تكون عن خيالهما.

مشـاعر الأمومـة طغت علـى أحداث الماضـى حتـى كادت أن تمحو من الذاكـرة تماماً، فلم تعد خديجة تفكر فى أى شـىء سـوى أنها سـوف تفقد ابنتها وربما إلى الأبد كما فقدت انتماء جيهان لها فى السابق.. الأمومة تحدت الظلـم والتهور والغضب اسـتدعت فقـط كل اللهفة والقلق والشـوق لابنتها الغائبـة بكـت كما لم تبكِ فى حياتها وكأنها هى السـبب فيمـا حدث لفتاتها عديمة الخبرة عن قسوة الحياة.

بينما استسـلمت هيام لسـيطرة الذهول الذى أرخى بسـدولة على كيانها كله.. فقدت القدرة على التفكير فى الماضى أو التعايش مع الحاضر أو ترقب ما يمكن أن يحدث فى المستقبل.

وكأن هيام باتت تتعايش مع الأشباح فقط، مجرد كيانات ليس لها ملامح.. حاولت أن تتسـول المغفرة أو التسـامح مع مشـاعرها تجاه جيهان ولكنها فشلت بكل قسوة، وفى الوقت ذاته رفضت بشدة أى خاطر يحاول أن يخترق

وجدانها ليذكرها بغدر أحمد فهمى أو جفاء وتسلط شقيقتها.

خديجة وابنتها هيام أصبحتا وكأنهما يســتقلان سفينة وسط المحيط بلا قبطان فأسلما حياتهما مجبرين لكلمة القدر.

بينمــا جاء صفوت عامر من غربته ليحشــد أكفــأ المحامين ليتولوا الدفاع عن ابنته الوحيدة بالنسبة إليه.. ولكنه اضطر إلى أن يشرك أحمد فهمى أيضاً فى تلك المحاولة للدفاع عنه من أجل جيهان، وهو فى حقيقة الأمر يحاول أن يثنــى المتهم الثانى عن إصراره بأن جيهان هى المديرة الأولى وهى الوحيدة التى تعاملت مع هؤلاء الرجال الغرباء الذين استلموا المخدرات أثناء وجودها. ولذلــك اضطــر صفوت عامر أن يوفر له حماية الدفــاع عنه مقابل أن يصمت عن ثرثرته وإصراره.

كان عامر يدرك تماماً أن الثمن ســوف يكون غالياً.. وهو حياته.. فالمافيا لن تتركه يورط رجالها ولن تتركه يهنأ بثروته أو بما تبقى من عمره.

ولكنه أصر على تلك المواجهة بعد أن تحدت مشاعر أبوته كل ما يمكن أن يلاقيه من عواقب وخيمة قد تبتلع فى جوفها كل مراحل حياته الســابقة التى عاشها وهو يفاخر بقوته وبثروته وبذكائه الحاد الذى أوصله إلى تلك المكانة الاجتماعية هناك كأحد رموز رجال الأعمال المغتربين فى السويد.

كان يعلم ذلك.. ولكن.. ما لم يكن يعلمه ولا يتوقعه هو ما أفشى به حسام ابــن اخيــه إليه، بعد أن أخبره بالحقيقة كاملة بالنســبة للظلم الذى وقع على زوجته خديجة ســواء مــن خلاله أو من غدر الزمان.. وحدثــه عن هيام ابنته التى تعنت بجبروته فى أن يعترف ببنوتها له سنوات طويلة مضت.

كانـت الصدمة عظيمة بعدما اكتشـف كل الأكاذيب التى كانت تنقلها إليه جيهان بلا رحمة أو إحسـاس.. فغيرتها المدمرة سيطرت عليها للدرجة التى هان عندها كل شـىء، فضحت بسـمعة أمها وأكدت عنده اليقين بأن زوجته خائنة ولا تزال تمارس خيانتها، وحرمته أيضاً من أن يتراجع عن موقفه تجاه هيام شقيقتها الوحيدة.

وكأن القـدر أراد أن يعاقبـه بنفـس مشـاعر الأبوة التى تخلـى عنها فى الماضى بكل بلادة وفتور وقسـوة وخيلاء السـفهاء أراد أن يعاقبه بمشـاعر الأبوة التى تحولت إلى هوة سـاحقة استقرت فى أعماقه وأشعلت فى باطنها لهيب الندم والحزن والقهر.

من أجل ذلك استسـلم دون مقاومة أو تفكير لقرار ابن أخيه حسـام بأن يرافقه للذهاب إلى منزله القديم الذى هجره ظلماً منذ سنوات طويلة.

قـرر أن يذهب إلى خديجة زوجتـه البريئة لعلها تغفر لـه خطيئته معها وتخفف عليه لهيب الندم.

لعل ابنته هيام تسـتجيب لمبرراته التى أسـقطه فيها تهوره وظنه السوء بزوجتـه كان أمله واهناً وهشـاً ولكنه لم يكن يسـتطع مقاومـة تلك الفرصة خاصة بعدما أكد له الأطباء فى السـويد منذ عدة أشـهر بأنه أصيب بالمرض الخبيث واحتمالات علاجه مضنية ولكنها ليست مستحيلة.

وذهبا إلى حيث تعيش الذكريات!!

وهناك.. شهقت خديجة، مرددة إليه عندما رأته بالباب:

ـ أنت.. أنت!!

همس حسام لعمه قائلاً:

ـ تفضل يا عمى.. تفضل.

ومــا كاد صفوت عامر يخطــو إلى منتصف الردهة حتــى ثبت فى مكانه متأملاً عندما وجد نفسه لأول مرة فى حياته أمام ابنته الثانية هيام.. انحسرت كل مشاعره فى نبضة قلب واحدة.. رأى كل ما يمكن أن يراه.فى لحظة واحدة وموقف منفرد.

رأى الجمال الأخاذ الذى تميزت به عائلته.. وملامح هادئة ونظرات مسالمة.. رأى الكيان الذى حاول الماضى أن يسحقه من ذاكرته من قبل أن يراه. الكيان البرىء الذى تحمل جرائمه وطغيانه بلا ذنب اقترفه ذلك الكيان الرقيق.

رأى الماضى وهو يتابع لحظة انكساره وانهياره.

قال بصوت خفيض متساءلاً:

ـ أنتى هيام.. أليس كذلك؟!

أجابت بهدوء مثير:

ـ نعم أنا تفضل بالجلوس.

و.. جلس الجميع فى مواجهة بعضهم البعض.

قال حسام بطيبة:

ـ لقد أخبرت عمى بالحقيقة كاملة.

لم يعلق أحد.

فعاد يقول متوسلاً:

ـ نحن فى ظروف لا تسمح باستدعاء الماضى.. مهما كانت ملابساته.. أنا أردت فقط أن أفعل ما يمليه على ضميرى.

قالت هيام بثبات وهى تجيبه:

ـ أنا أعرف حقيقة مشاعرك النبيلة.

تدخل صفوت عامر قائلاً بصدق:

ـ وأنا أيضاً أعرف أننى ضيف ثقيل غير مرغوب فى وجوده.. ولكن. لم أستطع مقاومة رغبتى فى الحضور إلى هنا.. مهما واجهت من صعوبة ذلك اللقاء.

قالت خديجة بنبرة حزينة:

ـ هذا منزلك فى كل حال.

التفت نحوها بنظرة رضاء.. فى الوقت الذى غابت هيام مع نفسها وهى تتأمل ملامحه.. ملامح أبيها الغائب عن المكان و.. الوجدان.

انتبهت للشبه الكبير الذى يربط بين ملامحهما.

فوجئت به يسألها قائلاً:

ـ كيف حالك يا هيام.. علمت انك تعدين لرسالة الماجستير.. وعلمت أيضاً أن الجميع يقدرونك وأنك تحصدين كل الحب من الجميع.. ولكنى لم أكن أعلم وأتوقع بأنك بهذا القدر من الجمال والحسن والروعة.

تدلت ابتسامة باهتة فوق شفتيها.. ثم قالت بجرأة:

ـ أشكرك على مجاملتك.

قالت خديجة بحزن وبنبرة أقرب إلى البكاء:

ـ ماذا أنت فاعل بشأن ابنتنا جيهان؟!!

أجاب بسرعة:

ـ لقد استعنت بأكبر محاميى البلد.. وأتمنى أن تنقذ من هذه الكارثة.. وسوف أفعل المستحيل فى سبيل ذلك.

رددت بحس أمومتها:

ـ أرجو ألا تبخل عليها بأموالك الطائلة!!

أسقط نظرته إلى الأرض وهو يقول بألم:

ـ المقابل ليس مالاً.. ولكنه حياتى.. و..

راح يسرد عليهم قصته منذ بداية رحلته مع الغربة، وكأنه أراد أن ينتهز تلك الفرصة لكى يجد لديهما صدى للغفران أو التسامح.. حكى كل شىء وكأنه يملى مذكراته على جهاز تسجيل.. وفى النهاية توقف برهة ثم قال بصدق:

ـ جئت بعد أن حولت ثروتى إلى هنا.. لأواجه مصيرى مع الموت وقرينه.. إما بالمرض.. أو بالاغتيال!!!

ثم صمت فى سكون متوتر، وهو يترقب أية همسة من أحد.

وكأنها صاعقة فاجأت الجميع وحصدت أنفاسهم فى مباغتة رهيبة..

تحدثت هيام وقالت بفتور مدهش:

ـ كنت أتمنى أن أواصل جلستى معكم.. ولكنى للأسف الشديد مرتبطة بموعد هام فى عملى.

و.. نهضت منصرفة إلى الخارج، بعد أن ألجمت الصدمة ألسنتهم.

لم تستطع وهى فى الطريق أن تتحكم فى مدامعها التى راحت تنزرف بغزارة فوق وجنتيها حتى وهى تستقل السيارة الأجرة التى سوف تنقلها إلى مقر عملها، الذى اتخذت قرارها بأن تذهب إليه بدافع من رغبتها الحقيقية.

طرقت باب مكتب شريف سالم ودخلته، وقبل أن يتفوه بأية كلمة.

لاحقته قائلة:

ـ جئت إليك كابنة وليس كسكرتيرة.

ظل صامتاً فى وجوم.. فأردفت:

ـ والدى جاء من الخارج بعد أن علم بالحقيقة.. التى سوف أخبرك بها وأنا راضية..و..

أخبرته بكل شىء.

نهض من وراء مكتبه واقترب منها على بعد عدة خطوات ثم قال بصوت يشبه الأنين:

ـ أنا أعتبرك كابنتى منذ أن رأيتك من اللحظة الأولى. ليست سكرتيرتى كما تعتقدين.

وبصدق شديد أرادت أن تكافئ هذا الرجل النبيل بأن تسعده بذكرياته مع الماضى البعيد.

فقالت على استحياء:

ـ ابنتك فى حاجة إلى أحضانك.

وبـلا تردد أفرد لهـا ذراعية وهـو ينظر إليهـا بحنـان.. فاندفعت نحوه لتحتضنه بلهفة وهى تواصل نحيبها، بينما راح هو يقبلها من رأسـها ويربت على ظهرها برفق وحنان وهو يردد:

ـ نعـم أنتى إبنتى التى تذكرينى بأغلى ما فى وجودى بالرغم من رحيلها عن حياتى أما أنتى فمكانك لم يرحل عن قلبى وذكرياته أبداً.

تراجعت بخطوة وهى تمسح دموعها بأطراف أصابعها.. وتمتمت:

ـ لا أعرف ماذا أفعل؟!!

قال بهدوء:

ـ ما سوف تفعلينه سوف تفرضه عليك الأقدار غداً.. أما اليوم يا سكرتيرتى العزيزة.. إذهبى إلى مكتبك ولا تنسى إننا فى مقر الشركة.

أجابت وهى تحاول الابتسامة:

ـ مهما كانت أحكام الأقدار.. فحضرتك سـتظل من أقرب الناس الى قلبى وعقلى ووجدانى.

قال ضاحكاً:

ـ إذهبى الآن قبل أن أتخذ قراراً بفصلك من العمل.. و..

اشتركا فى لحظة مشاعر صادقة.. وانصرفت هى إلى مكتبها.

١٦

عندما تموت المشاعر، وتتشرنق داخل غربة الوجدان، يصبح من المستحيل أن تنبـض بالحياة مرة أخرى، حتى ولو زالت عنها كل المؤثرات والمسـببات التى أدت إلى وأدها.. فالحب إحساس ينبض بكل تناقضات المشاعرالإنسانية، فهو شـديد التمرد وغزير الحنان.. لديه سـطوة خارقـة للتحمل واللين وأيضا للعصيـان.. الحـب هو المعنى الحقيقى للحرية، يحلق بها كما يشـاء وفى أى زمان ومكان، ويرحل بها بقدرة تفوق أى سيطرة عليها.هو الحاكم بأمره على القلـوب والوجدان، قد يصفح وهو مظلوم وقـد يغدر وهو ظالم.. هو صاحب القرار فى تواجده ولا أحد يملك إستدعاءه دون إرادته.

ولذلك بدت عودة صفوت عامر وكأنها لم تكن.. الغربة باتت وكأنها حائط صد صلب حال دون اختراق أية تغيرات نفسية أو حسية لدى خديجة كزوجة سـابقة وهيام كابنة حصلت على شـرعية بنوتها فكان تأثيرهـا كالذى ينال أرفع الأوسمة بعد وفاته.

وارتضى صفوت عامر بإرادته وبدونها أن ينال جزاءه من حكم القدرعليه وأحاطـه بنسـمات الفتور مـن كل غريب وقريـب، أصبح بيـن الجميع كيان يتحرك بعيدا عن نطاق المعايشة وكأنه ظل يظهر ويخبو فوق رمال النسيان المتحركة التى تتربص لالتهامه فى جوفها عند أى لحظة هو على يقين بأنها آتية بلا ريب.

حاول التقــرب إلى هيام فى عدة لقاءات منفــردة داخل المنزل وخارجه. كان صادقــاً فى محاولاته ولكنه أيضاً كان يشــعر وكأنــه يتحاور مع صورة زيتيــة تتحرك كالجرافيــك على شاشــات التكنولوجيا.. أعاد على مســامعها رحلته مع الغربة، وكيف خدعه فوران الشــباب وتآمرت عليه غيرته الشــديدة علــى والدتهــا.. عدد أمامهــا كل المبررات التى اســتند عليهــا عندما تبرأ من بنوتها.. طالبها بالغفران.. لم تقبل ولم ترفض.

فقط همست إليه قائلة فى إحدى لقاءاتهما:

ـ أنا ليس لدى أى مبررات أقولها لك.. ولكنى سأكتفى بأن أخبرك بحقيقة واقعــى.. وســأترك لك الحكم.. وأيضا التصور لما يمكـن أن يكون.. أنا جئت للحياة وأنا أحمل على كاهلى الضعيف ذلك الإحســاس المؤلم، وهو اليتم من الأبــوة.. ثم أخذتنى ســنوات عمرى فى مرحلة الطفولة والشــباب إلى فاجعة عدم اعترافك ببنوتى.. ســقطت بين رحى الظلم القاسى، ما بين موقفك وبين خيانة أمى الزائفة.. لم أعد أدرك كيف ســأواجه مصيرى مع عمرى المتبقى.. هل أنا ابنه شرعية حقا..؟ ومن هو أبى الحقيقى!! وماذا عن خيانة أمى التى ألقت بى إلى ملجأ ضحايا الأبرياء.. كنت أشعر بالمذلة كثيراً.. وبالظلم يمتص رحيق شــبابى طويلاً.. تابعت أختــى جيهان وهى تنعــم بأحضانك وأبوتك، وتابعتهــا أيضاً وهى تمعن فى إذلالى أنا وأمى. والآن تطالبنى بالغفران.. فما رأيك أنت؟!!

أجاب وهو منهك القوة:

ـ عزائى الأقوى والوحيد.. هو أننى وأمك قد ظلمتنا الأقدار أو خدعتنا الأحداث..

ويقينــى بأن الخالق هو أرحم الراحمين.. وهو الذى يغفر للإنســان كل خطاياه.. فكيف يكون شــئننا مع خطايانا أمام بعضنا البعض كبشر.. أنا لا أطالبك بالحب أو الانتماء لى بقدر رجائى بأن تغفرى فقط خطيئتى غير المتعمدة.

قالت بصدق شديد:

ـ اللــه قــادر على كل شــىء.. وعالم الغيب.. ونحن لا نملــك غير ترقب ما سوف تأتى به الأحداث والمشاعر من تغييرات.. حسب إرادته أيضاً.. و..

وقبل أن يعقب على كلماتها.. استطردت قائلة:

ـ هل يمكننى أن أطلب منك طلباً.

أجاب مسرعاً:

ـ أنتى تأمرى يا ابنتى.. فكل طلباتك مجابة بلا تردد.

قالت بحسم:

ـ أريد أن التقى بأختى جيهان أنا وأمى.. و.. أحمد فهمى بمفردى!!

مضت لحظة صمت كئيبة.. ثم قال بهدوء:

ـ إنهما قيد التحقيق الأولي.. وسأسعى لتحقيق رغبتك مهما كان الثمن.

لــم ينتظر صفوت عامر طويلاً، وطلب مــن مجموعة المحامين أن يمهدوا لتلك اللقاءات بشكل قانونى.

وبعــد مرور عــدة ليال غير طويلــة، أتاها مبتهجاً ليخبرهــا هى ووالدتها بموعد تلك اللقاءات كما أرادت.

كان لقـاء جيهان مـع والدتها وهيام مثيراً ومفجعـاً ومؤلماً.. كان بكاؤها متواصـلاً فـي نحيب يمـزق القلـوب، وشـاركتها خديجة فى ذلـك الانهيار الوجدانـى وهمـا يتعانقان فى لحظـة غابت عنها كل معانـى الكلمات.. كان البكاء هو المسـيطر وكأنه بمدامعه يرفع عن مشـاعرهم كل تراكمات أحداث الماضـى من ذكريات أليمة أو سـعيدة.. كانت الدموع هـى الحقيقة الوحيدة التى جمعت بينهم جميعاً.

والتفتت تجاه هيام ورددت من وسط نحيبها:

ـ سامحينى يا أختى. سامحينى يا هيام.

ضمتها هيام إلى صدرها وهى تقول بحنان صادق:

ـ والدك يؤكد أن الحكم سيكون مخففاً.

شـعر صفوت عامر فى تلك اللحظة وكأن سـكيناً حاداً قد اخترق أضلعه بعدما ترامى إلى مسـامعه كلمـة.. والدك.. وليس والدنا.. ولكنه سـرعان ما تماسك بحنكة سنوات عمره.. وقال مؤيداً:

ـ نعم فجميع المحامين أكدوا لى ذلك.. ونحن جميعاً بجانبك يا حبيبتى.

و.. فى اللقاء الثانى كان الأمر مختلفاً عند لقاء هيام بأحمد فهمى منفردين حيث تأملته قليلاً فى لحظات مبهمة المعانى.. وهمست إليه متساءله:

ـ لماذا يا أحمد.. لماذا فعلت بنفسك ذلك؟!!

بدا ثابتاً ومستسلماً لليأس ولمصيره المجهول.. وأجاب بهدوء شارد:

ـ أنا ظلمت نفسى وظلمتك.. ولا يحق لى الاعتراض على الظلم الذى أشعر

به الآن.. وكل ما يمكن أن أخبرك به هو.. أننى برىء يا هيام..وأقسم لك أننى برىء من تلك التهمة.

رددت وكأنها تهمس إلى نفسها:

- برىء من ظلمك لى.. أم من ظلمك لنفسك؟!!

تأملها بنظرة لا حياة فيها، ثم فاجأها بطلب إنهاء تلك المقابلة.

وانصرفت عنه.

وكأن الجميع لم يعد لديهم ما يقولونه.. لا شىء سوى الانتظار القاهر.. وكأنهم بلا ذكريات يستدعونها فى لحظات التأمل وبلا آمال يتوقعون حدوثها، ولا حاضر يتعايشون معه.. فقط أنفاس تتلاحق من الصدور، وعيون لا ترى إلا الغيوم والضباب.. أصبحوا كوريقات الشجر التى تتدلى من أغصان الحياة، كل منهم ينتظر أن تسقطه رياح الخريف أو تخدعه نسمات الربيع.

وفى لحظة فاترة وباردة فوجئت خديجة فى مساء أحد الأيام بما لم يكن فى حسبانها مطلقا عندما جاء لزيارتها صفوت عامر برفقة شقيقه الأكبر وولده حسام.

استقبلتهم بوجوم غير إرادى،وكان الأخ الأكبر صاحب المبادرة فى الحديث قائلاً لها بتلعثم طبيعى:

- أنا أعلم بأن الظروف لا تسمح بسبب مجيئى إلى هنا.. ولكن لأسباب فرضتها الأقدار، كان لابد أن أبادر بتلك الزيارة.

قالت بنبرة فاترة:

ـ أنا لم أغلق بابى فى وجه أحد من قبل.

تلفت صفوت كأنه يبحث عن شىء ما.. ثم همس على أستحياء:

ـ هل هيام موجودة.. أريدها تحضر ذلك اللقاء.

أجابت بلا اهتمام:

ـ هى فى عملها الآن.

تدخل الأخ الأكبر وتوجه إليها قائلاً بصوت منهك وضعيف:

ـ أعتقد بأن من حقك أن يرد إليك اعتبارك.. ولقد تحملت مشقة الحضور إليك كى أعزز ذلك الموقف.. لعلنى أساهم فى تصحيح أخطاء الماضى وأن أنال رضاك.

شملتهم جميعا بنظرة اندهاش واحدة.. ثم قالت مستفسرة:

ـ أنا لا أفهم مقصدك من هذا الحديث!!

عاد صفوت يقول وهو متحمساً:

ـ أريدك أن تقبلى رجائى بأن أعيدك إلى عصمتى.. من أجلك ومن أجل بناتنا..و.. قاطعته بحزم:

ـ ما هذا الهذيان الذى تقوله؟!!

قال وهو يحاول أن يبدو متماسكاً:

ـ من حقك أن تنفرين من مطلبى.. ولكن.. قد تعيدين التفكير فى تغيير موقفك عندما تعلمين الدافع الحقيقى لوجودى الآن هنا.. و..

حاولت أن تتكلم، ولكنه استوقفها بإشارة من يده.. ثم أردف قائلاً:

ـ أرجوك اســتمعى لى فقط.. فأنا كما تعلمين مريض بمرض قاس.. فلقد أصبــت بأورام خبيثة فى رأســى.. ومضطر أن أجرى العمليــة الجراحية غداً بالمستشــفى، ولا أعرف إن كنت سأحيا بعدها أم ســأرحل عن الدنيا.. ولهذا أردت أن أعطيــك حقك فــى ثروتى لعلنى بذلك أرفع عنــك بعض الظلم الذى لحق بك بسبب تهورى.

تدلت ابتســامة على طرف شــفتيها بــدت وكأنها تبصق علــى وجهه.. ثم أجابت بكل ثبات واستياء واضح:

ـ هذا شأنك مع إبنتيك.. أما أنا فلست جزء منك.. ولا أحمل لك حتى الذكريات.

أنكس رأســه قبل أن يرمق حســام بنظرة ســريعة، وكأنه يتوســل إليه أن يتدخل فى الحديث.

ولكنه فوجئ به يقول بارتباك:

ـ يا عمى نحن جميعاً نتمنى لك الشفاء.. وأن تتخلص من هذا المرض اللعين.

ولاحقه الأب مردداً:

ـ كنت أعلم أن الأمر سيكون مستحيلاً.. ولكنها محاولة منا على الأقل.

قالت خديجة بهدوء مثير:

ـ نعم أتمنى لك الشفاء من مرضك الخبيث.. ولكن يجب أن تعلم جيداً أن هناك جراحاً قد لا تدمى ولكنها أقوى وأقسى من الأمراض المستعصية.. فهى جراح لا شفاء منها لأنها داء يلازمنا حتى لحظة الفناء.

حرك رأسه مؤكداً فى انكسار شديد.. وقال وهو يتأبط ذراع أخيه متأهباً للانصراف:

ـ عندك كل الحق.. فالجراح التى لا تدمى لا سبيل من شفائها.

وانصرف الجميع تصحبهم لحظات صمت متوترة كالزلزال.

وقبل أن تغلق الباب من خلفهم.. قالت خديجة بتودد:

ـ يا حسام.. اخبر هيام بموعد العملية ومكان المستشفى فهذا من حقها.
التفت إليها قائلاً بحب:

ـ بالطبع سأفعل.. سنكون معاً أنا وهى.

كانت هيام تعلم أنها ستواجه قرارات ومواقف كثيرة تحتاج إلى وقفة صادقة مع ذاتها.. فالأحداث من حولها تتلاحق كأمواج البحر الهادر.. والواقع بات وكأنه تضاءل أمام الغيوم والضباب المبهم.. كأنها فى رقاد يقظ تبصر من خلاله حركة الليالى وهى غير قادرة على الحراك.. أو اتخاذ أى قرار لم يعد أمامها غير ملاذها الأخير لكى تستعين بخبراته وأبوته الحنونة.. فكان لقاؤها مع شريف سالم الذى حددته هى بإرادة وجدانها.

دخلت إلى مكتبه وبادرته قائلة:

ـ أنا فى احتياج شديد لمشورتك.

قال مع ابتسامته الهادئة:

ـ وأنا هنا.. من أجل ذلك.

راحت تسرد إليه كل التفاصيل الآخيرة.

بأن أباها الحقيقى بالمستشفى ينتظر المـوت بين اللحظة والأخرى كما أخبرها حسـام ابن عمها.. وبأن والدتها رفضـت العودة إلى عصمة زوجها.، وحسام يلاحقها برغبته الصادقة فى الارتباط بها كزوجة له.. وبأنها مرعوبة من مصير جيهان الذى قد ينهى شـبابها وراء قضبان السـجن.. وبأنها أيضاً تعانـى من دوار القلق أمام ثروتها المنتظـرة التى وعدها والدها بها.. وكيف سيكون موقفها.. هل ترفض؟ أم تقبل!!

و.. أردفت:

ـ أنا حائرة يا أستاذى العظيم من أمور كثيرة.. لا أجد لها تفسيرات مقنعة.

قال بثبات:

ـ ما هى.. أذكريها لعلنى أستطع معاونتك.

قالت بلهفة:

ـ حائـرة مـن موقف أمـى ورفضها عرض أبـى.. بالرغم مـن أنها أثبتت براءتها أمامه، وأثبت هو كيف لعب به شيطان الغيرة والتهور.. وفى الحقيقة كلاهما فى نظرى يستحق العطف والاقتناع بمبرراتهما.

وحائـرة مـن موقف أبى تجاهنـا، خاصة أنه لم يعد مـن أجلنا ولكنه عاد فقط لإنقاذ جيهان.. وأيضاً من غرابة تغيره الكبير فى مشاعره نحونا.. فأنا لا أستطيعا استيعاب ذلك المنطق.. وهل هذا ممكناً ومقبولاً؟.. و.. حسام أيضاً.

لقد انشطرت مشاعرى تجاهه إلى شطرين دون إرادتى الشطر الأول يمثل بالنسـبة لى أنه جزء من ماض أبغضه كأحداث وليس كأفراد.. والجزء الثانى

هو تحت قبضة سلطان الحب العنيف..فأنا أحبه بصدق.

بأسارير شاحبة، وملامح واجمة.. أجاب شريف سالم بنبرة شاردة:

ـ يبدو أنه قد حان الوقت لتعلمى الحقيقة كاملة!!

رددت باندهاش:

ـ أية حقيقة.. أتعرف شيئاً غامضاً بالنسبة لى؟!!

أجاب بوقار شديد:

ـ نعم أعرف.. ما لا تعرفينه أنت وآخرون أيضاً.

واستطرد بثقة:

ـ أنا شريف سالم.. ابن خالة والدتك.

تهاوت هيام فوق المقعد. وكأنها تسقط داخل بئر بعد أن ارتطمت رأسها بحجارته.

وهمست بصعوبة متساءلة:

ـ كيف؟!!

ـ قبل أن أذكر لك أى شىء.. دعينى أولاً أن أقسم بالله العظيم أن كل حرف سأذكره لك.. هو الحقيقة ولا شىء سواها.

ظلت صامتة فى ذهول.. فأردف مسترسلاً:

ـ أنا لم أر والدتك منذ تلك الليلة المشئومة والظالمة.. ولم أسمع صوتها منذ وفاة خالتها، إلا مرة واحدة منذ عدة سنوات.. و..

صمت برهة ثم قال:

ـ منذ تعيينك هنا فى شركتى.. هى لاحظت حرصك الشديد وشغفك الكبير لتحصيل المزيد من العلم، فأرادت أن تضع قدميك داخل مكان أمين يتيح لك فرصة تحقيق ذلك ويوفر لك المال بكرامة والجهد أيضاً.. فأوصتنى عليك ولم يكن أمامى غير تنفيذ تلك الوصية بكل عرفان وتقدير.وحاولت معك بكل السبل أن أتخلص من إحساسى بالعذاب نتيجة لذنب وجرم لم أرتكبه.. وظُلمت فيه أنا وأمك المحترمة ولكن كل ذلك لم يشفع لذلك العذاب الذى عشت فيه من أننى كنت طرفاً مباشراً فى تفكك أسرتكم الكريمة.لقد عشت سنوات طويلة، أحاول أن أتعلل مع نفسى بأننى لست مسئولاً عما حدث.. ولكنى.. فشلت فشلاً ذريعاً للتخلص من ذلك الإحساس الكئيب الذى بلا شك كان يتعايش مع أمك.. إلى أن جاءت زيارة جيهان لى وقالت ما قالته.. فخشيت أن تتكرر المأساة معك من جديد وتنال من سمعتك ظلماً وبهتاناً.. ففصلتك من العمل.. والمثير حقاً هو وكأن الأقدار قد وضعتك فى طريقى منذ البداية لتعيدى لأحاسيس الماضى البعيد نبضها، ورأيت الشبه غير العادى بينك وبين زوجتى ومحبوبتى فى حياتى كلها. ولذلك كنت أعيش مع ذكرياتى الجميلة فى ظل وجودك الواقعى أمامى.. فكنتى ابنتى التى لم أنجبها وأحببتها، وكنتى أيضاً ذكرى الوفاء والعشق مع زوجتى الراحلة.. فاتفقنا أنا ووالدتك العظيمة، أن نخفى الأمر عن الجميع.. خاصة أنها كانت تشعر دائماً بتباين الأفكار والسلوك بينك وبين جيهان.. وأيضاً من أجل ألا نحيى صدى الماضى من جديد ونتذكر الظلم الذى وقع علينا أو نستعيد عذابات الظنون والشكوك من جديد.

قالت ببراءة:

ـ هذا يثبت تفسير صدق إحساسى الغريب نحوك منذ أن رأيتك.

ابتهج لرد فعلها.. وأسرع يقول بسعادة:

ـ هذا يعنى أنك تصدقينى فعلاً!!

ـ أنا أصدق إحساسى الذى يدفعنى لكى أصدقك..

قال بتودد:

ـ إذن يجب أن تنفذى كل ما سيقوله خالك الجديد.. الذى هو أنا.

ـ أنت لست بخالى فقط.. أنت أروع معانى الوفاء والكبرياء.. و.. الحب أيضاً.

قال بجدية:

ـ اذهبى إلى والدك بالمستشفى.. لعلك تخففين عنه عذاب الشك وقسوة المرض.

أجابت بسرعة:

ـ بالطبع سأذهب إليه، وسأظل بجواره فى تلك المحنة، ليس بسبب ظروفه المرضية فقط، ولا من أجل أن أواسيه لموقف أمى.. ولكنى سأفعل ذلك لأنه أبى شئت أو لم أشأ.

ردد وهو مبتهجاً:

ـ إذن اتصلى بحسام واذهبى معه إلى والدك.. لكى يبارك علاقتكما المستقبلية.

رمقته بنظرة دهاء.. وتساءلت:

ـ ماذا تقصد يا خالى.. ولماذا حسام؟!!

أجاب بحب:

ـ لأن حسـام هو الإنسان الوحيد الذى أطمئن معه عليك فى مشوار حياتك القادمة.. إنه يحبك بصدق، وهويستحق كل مشاعرك من حب وتقدير لرجولته وشهامته.. وإصراره عليك أيضاً مهما كان الثمن.

قالت بدلال راق:

ـ لقد تعلمت من أقاصيص التاريخ، أن الفتاة يجب أن تطع خالها فى كل ما يريد.

و.. وضع قبله فوق جبينها قبل أن تنصرف من أمامه.

واتصلت بحسام لكى يلحق بها عند بوابة المستشفى فأخبرها بأنه موجود منذ الأمس.

وعند بوابة المستشفى أسرعت نحوه وهى سعيدة، ولكن سعادتها سرعان ما انطفأت عندما لاحظت الحزن والوجوم فوق ملامح حسام.. وبادرته بلهفة قائلة:

ـ ماذا بك يا حسام؟!!

أجاب بأسى:

ـ عمى توفى فجر اليوم قبل أن يجرى العملية:

رددت بلا إرادة:

ـ أبى.. أبى مات.

عاد يسترسل:

ـ لقـد أخبرنـى محاميه صبـاح اليـوم، أن عمى تنازل عـن كل ممتلكاته وثروته لأمك بصفتها والدة ابنتيه وكأنه أراد أن يكفر عن ذنبه الذى لم يرتكبه

عمداً ولكى يرد الاعتبار للسيدة الجليلة والدتك أمام نفسها وأمامنا جميعاً.

قالت بتأثر واضح:

ـ هى تستحق أكثر من ذلك.. ولكن.. عجباً على الأقدار التى تميت الإنسان فجأة دون أن يعرف الحقيقة كاملة عن حياته، ولست أدرى هل هى نقمة أم نعمة!!!

قال بتؤدة وعلى غير المتوقع:

ـ هيا نذهب لخالك لنخبره بما حدث.

التفتت نحوه مشدوهة:

ـ كيف عرفت بمسألة خالى؟!:

لم يستطع التحكم فى ابتسامته فطفرت على طرف شفتيه وهو يقول:

ـ والدتك العظيمة أخبرتنى بكل شىء، بعدما تأكدت هى من حبى الجارف لك، وأرادت أن نبدأ حياتنا بشفافية ووفاء.

ـ إذن هيا إلى خالى.. و.. يا زوج المستقبل وحبى الأخير.

تمت

الإصدارات الروائية للأديب أحمد فريد

همسة وداع	نشرت فى ليبيا	١٩٧٢
الشك	نشرت فى ليبيا	١٩٧٣
خطوات بلا طريق	نشرت فى ليبيا	١٩٧٥
نبضات لا تموت	مطبعة النهضة بالقاهرة	١٩٧٦
الحب وحده لا يكفى	دار غريب بالقاهرة	١٩٨٠
ممر الذئاب - ثلاثة أجزاء	فترة التفرغ	
دعنى أحاول	دار غريب بالقاهرة	١٩٨٢
عندما يبكى الرجال	دار غريب بالقاهرة	١٩٨٣
لا تدمرنى معك	دار غريب بالقاهرة	١٩٨٤
يا صديقى كم تساوى	دار غريب بالقاهرة	١٩٨٥
لن تسرق حبى	دار غريب بالقاهرة	١٩٨٧
سامحنى يا حب	دار غريب بالقاهرة	١٩٩٠
الحب الكبير - ثلاثة أجزاء	فترة التفرغ	
هو منتهى الحب	دار قباء بالقاهرة	١٩٩٤
عمر عمرى	دار قباء بالقاهرة	٢٠٠١
كذبت عليك فصدقنى	دار قباء بالقاهرة	٢٠٠٢
يا أنا لا ترحل عنى	دار قباء بالقاهرة	٢٠٠٤
حب بلا مأوى	دار قباء بالقاهرة	٢٠٠٥
الحب بعد المساومة	دار قباء بالقاهرة	٢٠٠٦
لآلىء الوحل	دار قباء بالقاهرة	٢٠٠٧
من يشترى عمرى	دار قباء بالقاهرة	٢٠٠٨
لا تعاقبنى يا حب	الدار المصرية السعودية	٢٠١٠
مشاعر مفترسة	دار قباء الحديثة	٢٠١١
لا تحزنى يا غالية	دار العزازى	٢٠١٤

- دار قباء أعادت طبع جميع الأعمال الروائية.
- حصل على جائزة مهرجان القاهرة السينمائى عام ١٩٨٢ عن أحسن قصة لفيلم «الحب وحده.. لا يكفى» إخراج على عبدالخالق.
- ترجمة رواية «الحب.. وحده.. لا يكفى «ورواية» عندما يبكى.. الرجال» إلى اللغة الصينية.
- تمت ترجمة رواية «هو منتهى الحب» إلى الإنجليزية.
- صدرت الطبعة الثالثة من رواية «هو منتهى الحب» فى كتاب الجمهورية.

* **الأعمال التى تحولت إلى أفلام سينمائية:**

- «الحب وحده.. لا يكفى».. إخراج على عبدالخالق - سيناريو وحوار «مصطفى محرم».
- «عندما يبكى.. الرجال».. إخراج حسام الدين مصطفى.. سيناريو «مصطفى محرم» وحوار «بهجت قمر».
- «لا تدمرنى معك» إخراج محمد عبدالعزيز.. سيناريو وحوار «أحمد صالح».
- «يا صديقى كم تساوى».. إخراج يوسف فرنسيس.. سيناريو وحوار «يوسف فرنسيس».
- عضو اتحاد الكتاب منذ بدايته.
- عضو نادى القصة.
- عضو الجمعية المصرية لكتاب ونقاد السينما.
- عضو رابطة الأدب الحديث.